كرم صابر



الكائن الضئيل

رواية

الكائن الضئيل

كرم صابر

«الكَائِنُ الضَّئِيلُ»

رواية

تأليف

كرم صابر

عنوان الرواية: الكائن الضئيل
المؤلف: كرم صابر
الغلاف: عبد العزيز السماح
مراجعة لغوية: محمد بصيلة

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش٩ – المقطم- القاهرة
ت،ف: ٢٥٠٧٥٩١٧-٠٢-٠٠٢
ww.mahrousaeg.com
e-mail: info@mahrousaeg.com
e-mail: mahrousacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

الطبعة الأولى : فبراير ٢٠١٣
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٤٦٩٤
الترقيم الدولى: ٨-٥٨-٥١٠٤-٩٧٧٧-٩٧٨

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها: المتهم ، وأين الله ، ورائحة الأنوثة ، وعشق الحياة ، وفؤاد المدينة ، وطائر النسيان ، ومريم العذراء ، وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

«للناجين من الجحيم....سلامًا»

"منير"

العيون المخيفة فى العتمة تلاحقنى، البطون العارية تستقبل السهام الحارقة ، يقذف البركان فى الفضاء بكل شىء ، تزحف الذاكرة بحرص لتحمى الأشواك والورود، يتلاشى الزمن فننطلق فى الكون سعداء بمصيرنا.

نسبح فى أغوار الخلائق، مؤمنين بالحب كطريق للخلاص، أطلق الزلزال أرواحنا، الانشطارات تتوالى ويتلاشى المكان، ينفجر الأذى مطلقًا "الجنون الزرق" والشياطين انبعثوا معنا فى الأرواح.

نتراشق بالكلمات، أسمع صوت القديرة صادحًا بالكون: "أنا الام الرحيمة، كتبت سطور لوحى المحفوظ بدموعى، خلقت الجنة والنور، أعيش بالنعيم، لاهم لى إلا المُلك وهموم الكون وخالقه، أعينه على مصيبته التى جلبها على نفسه، ليس لشىء إلا ليتباهى ويقول: "أنا ربكم الأعظم ".

تلاشى الخطر وراح كل لحال سبيله، فجلست أتفرج على نورى، ينتشى الأرباب الطيبون بأسئلتى لإيقاظ المشاعر وضخ الأمل فى النفوس.

أحيا بأعماق صاحبى الانسي ، مستغرقًا فى الكمال، أطلقتنا القديرة وسط الكون، لنسبح فى الروح، ونُخلِّد الكائن البشرى ونجعل هالته تسمو وتطول السماء.

أسمع صوت حبيبتى تحكى بألفة : "يناكفنى "منير" ويعشقنى، يقلد صوتى وإشارتى، يقتحم الممر باحثًا عن رحيقى، يجمع الكائنات حوله ويحكى لهم حكاية "المطيور والشرقانة ".

يصرخ الأرباب الخونة، آملين هدم أسوار الجحيم، يسمعون صوتى، فيزداد جنونهم وصراخهم، أتمادى قائلاً: "نحن الكائنات الضئيلة، اخترنا الحياة بالنفوس الشاردة، نعطى الإشارات لعقولهم ليستقبلوا ويرسلوا مفرداتها وشواهدها، فيتحركوا ويندمجوا ويأكلوا ويتكلموا ويناموا".

حين يفقدون توازنهم يصرخون، نلبى رغبتهم لنعينهم على تحمل المصائب، ننطلق وسط السكون بهويتنا، نعود لأعماقهم هادرين إذا جال طيفهم بخيالنا.

لا تشغلوا أنفسكم بكينونتنا، سايرونا فقط لتتعرفوا على الخبايا، نحن شعاع من نور، نظهر فى لحظات الظلام، نغوص داخلكم لنوقظ قلوبكم من الغفلة، لا تسخروا من حجمنا، فنحن كائنات مثلكم تحلم بالألفة.

أصدح بصوتى ليحس الجميع حضورى، قائلاً: "أنا "منير"، الذى يمكنه نقل الدنيا وإعادتها قبل أن تطرف أعينكم"، ومع ذلك حين يصاب عصفور صغير فى جبينه، أبكى حتى

تجف مشاعر الحزن بنهر أعماقه، أتركه بعد تغريده للصبح وتدفق الحب فى عيونه، خلقت فقط لجعل أعماقكم فى حالة ألفة وسلام ".

أسمع من جديد فى البرية صوت الأم الصادح ، قائلاً: "صَمْتُ سكونى هو السلام ، صَمْتُ سكونى هو قتل الطمع والترف ورغبات الحياة الزائلة، اطلبوا طريق القوة والخير، اطلبوا بصفاء الروح، لتنالوا الحب مبعث السعادة والفضيلة، الغاية من وجودكم هى الجد والاجتهاد، بقوة إرادتكم وتحكمكم فى العقل، يمكنكم كشف أسرار نورى والسمو فوق اثير الكون".

"اعلموا أن نيل القناعة والطهارة وكبح جماح النفس يأتى بالتقشف والصدق والعفة ، ستصبح قلوبكم القوية المضيئة مثل الزهرة التى تتفتح بعد السكون الذى يلى عاصفة الأمطار، ورغم ذلك فأنتم قطرة فى محيط عالمى الواسع، املؤوا قلوبكم بالسلام، لتروا ببصيرتكم جناتى وتشموا عبيرى، ما أجمل لحظة شعوركم برضاى واختياركم دون العالمين لتعيشوا بنعيمى!"

الانفجارات تتوالى، "الجنون الزرق" والشياطين يتصارعون مع الخالق، يملؤون حى الظلام الذى فقد النور بموت الرجل الذى كان يتواصل مع المدد الأعلى، يحشدون الغِيلان لهزيمة المتكبر الجبار.

فى عالمنا المخفى صراع دائم حول الرسالة، يعتقد الشيطان والأرباب الخونة بأنهم ملوك الكون ويمكنهم إدارته بطريقة أفضل، يرون أن حكمة الام فى التوازن التى حمت الدنيا من الزوال فاقمت الجحيم والعذاب بأرواح البشر، يتجهزون منذ آلاف السنين لإعلان رسالتهم، لولا نور ربتنا لاستولى أتباع المؤذى على أسرار الكون ومفاتيحه.

تهد أمنا عزيمتهم وتضعف أحلامهم، وتهب فيهم صارخة:"سأحرق سوادكم" ليختفوا بالجحيم بعيدًا عن قلب عالمها الريان.

يتجاهل الأشرار قدرة العزيزة التى خلقت ثلاثمائة وخمسين مليون أمة أخرى، تحيا فى مملكتها، مثل ذوات الأجنحة، وأمم أخرى طول الواحد منهم ألف شبر، وفكّها خمسون شبرًا، يتحدثون بغرابة من أنوفهم دلالة على سر الخنق. لا تشغلوا أنفسكم بمخلوقات الكون، فقط استمتعوا معنا بليلة قمر الحصاد، الذى يجرى فى السماء ليضىء قلوب العاشقين .

رفرفت روح محبوبتي "بهية" من حولى، غردت باسمى، وألقت برحيق النشوة فى الدنيا، احتضنتنى لنجوب الفضاء، أثناء تجولنا سمعت صوت صاحبى يهذى غير واعٍ بمصيره.

بالأمس حكت حبيبتى عن جارة صاحبى، قائلة: "تقوم وسط الليل مفزوعة من نومها، تدخل حمام شقتها وتدعك نهودها وفرجها بشبق غريب، تطلب منى جلب أرواح الرجال لتغتصبهم "، تهيم صديقتى بروحها وهى نائمة بالأزمان والأمكنة ، فيمتلئ قلب الجارة بالبراءة التى عاشتها قبل أن تتزوج الجربان أبو أولادها.

انا ايضا كائن ضئيل مثل حبيبتي ولى صاحب يعيش بينكم، يتدفق مثلكم بالحياة، لكن القدر حمله برساله يتعذر عليه حملها، ويتوقع بجهله أن العيش فى النور سيفقده الإحساس بالحياة.

حياته بسيطة، يراقب جيرانه ونفسه، يدفعنى ذلك لتلمس دفء أعماقه ، حين شعر بأحاسيسه تهرب من جسده، سأل نفسه: "أين اختفت؟" وظل أسير غيابها طوال رحلته ، رغم وجودى بروحه ومده بالخير والإجابة على ما يدور بخلده، لكن صوته المتردد يؤكد هروب أحساسه من أعماقه، فأدعمه وأقول : "لا يهم أنك فقدت شعورك؛ فالقديرة التى منحتك الحب، وطمست بحريتك خطوط التواصل مع نورها، كفيلة بأن تمدك مرة أخرى بالأمل".

أشارت "بهيتى" الغالية على قلبه، قائلة: "يجاهد بدأب ليبقى أعماقه حائرة"، طلبت مني مداواته وإنارة حى الظلام، فانطلقت مغردًا، عائدًا لروحه مؤنسًا وحدته، لكنه أضحى لا يعرف قيمة الوقت أوالرضا.

يحتاج سلامى وانطلاقى، أثناء نومه، طفت بروحه وسط النور الذى ملأ الكون، اندهش كالمجنون من تجاوز الحى، استمتع بحديقة السماء التى بنت بيوتها بنظام فريد تجعل من يدخلها لا يخرج منها أبدًا.

رغم طيبته وإيمانه بوجودى، لكنه لم يثق بعد بقدراتى، بدأ يتلمس ظهورى كالغيوم التى تسبق الأمطار، يهرع وسط شوارع الحى فاقدًا روحه، أرجوكم لا تظلموه ولا تقسوا عليه.

"منسى"

يشاركنى بحياتى كائن منير، تشبه ملامحه نور عيونى، يراقبنى ويتدخل فى شؤونى، ينتفض حين يؤذينى أحد، ويضحك على حيرتى، يسخر من أفعالى، ويرعانى كأم دأبت لأتجاوز شر الطريق.

أتجاهل نوره وأشرب كوب اللبن، أغادر الشقة، آملا استقبال نور الشمس، باحثًا بين أعماقى عن نسمة هواء دافئة، تجعلنى أقول لكل من يقابلنى: " صباح الخير "، أجلس على المقهى، أبادل أهل السوق الابتسام، وأسألهم عن صحتهم وأعمالهم، يردون بعفوية: " أهلاً وسهلاً يا خويا، إحنا كويسين، وأحسن منك يالمض!!"

أفتح باب سنترالى، أتلفت حولى فى ريبة، أرتب المكتب، أجرب خطوط التليفونات فى الكبائن، وأجلس على مقعدى منتظرًا دخول زبائنى.

يشاغلنى منير لأهتم بوجوده، أتجاهله وأخرج من الباب، مناديًا على القهوجى ليحضر فنجان القهوة السادة، يضحك عن آخره، وهو يدلدل قدميه الصغيرتين، قائلاً بخفة: "خليهم اثنين قهوة يا سيدنا ".

تناولنى "صبرة الداية"ورقة متهالكة مسجلاً عليه رقم تليفون للاتصال بأبنها "حسن "، أحس بأنينها ونبرات صوتها الخشنة، أسمع دفء أعماقها وهى تقول: " ازيك يا "سونة"، عامل إيه يا خويا، اخص عليك يا وسخ، مفيش مرة تسأل عنى، هترجع إمتى يا وله؟!"

حين يتم قطع الخط من ناحيته، تخرج من الكابينة لتدفع الثمن ماسحة دموعها، وتغادر وحيدة، يغازلها "سكران"القهوجى، قائلاً: "القمر حزين ليه؟" تلتفت إليه صامتة وتستكمل مسيرتها.

ينادى الباعة من حولى لتسويق بضائعهم، يتحول الحى لمنتجع متنوع الألوان، أشم عرق النساء بروحى، يصرخ الجميع فى الشارع فى وقت واحد، ليثبتوا حضورهم المتفرد بتلك اللحظة فى الحياة.

تدخل "تحية" الخضرية، وتعطينى رقم تليفون، وتقول بأمل: "اتصل، يا نور عينى، يمكن يرد، اتصل يا خويا، جرب كمان، يمكن تليفونه ضاع منه، ده اللى سافروا معاه رجعوا ومش عارفين حاجة عن أخباره".

تخرج من السنترال والأسى يمزق قلبها، لكن شيئًا ما بداخلها يدفعها لتجاوز الغائب، تواصل طريقها فى انتظار "المدد" لمعرفة سر الهجر.

تعيش بالطول والعرض، تصرف كل ما تكسبه على صغارها، تسأل عن صحة جيرانها لتشعر انها مازالت حيه، تقف مع "سكران" وسط الشارع تحكى بصوت خفيض، أسمع ضحكته الرنانة وهو يلوح بيديه للزبائن، قائلاً: "وعندك اتنين شاى بربرى للحاج سعيد".

يستهزئ "منير" من صبرى على سماع أصواتهم طوال النهار، قائلاً: "اتحمل يا حبيبى، أهى شغلانة والسلام".

أخذت رشفة طويلة من فنجان القهوة، فهرول لقاع الفنجان شبه الفارغ، لاحسًا البن الذى يركن بأعماقه، قائلاً: "يا بخيل، فين القهوة بتاعتى؟!"

رغم علاقتى الطيبة بالجميع، لكنهم ينادوننى بابن الخرفانة، يعتقدون معاشرتى للجن والغيلان، ومعرفتى بالغيب مثل والدى الذى مدهم بالتواصل مع أرواحهم، آمنوا بتعاويذه التى شفت مرضاهم وأعانتهم على تحمل البلاوى، عاش بينهم بألفة، دون إشارة على أنه رسول السلام.

كان ابي يقول: "فى أعماقنا قوة لو تلمسناها وعرفنا طريقها، لا يمكن للحزن أن يهزم قلوبنا"، رغم إخلاصه فى دعم جيرانه وتلبية آمالهم، لكنى حزين لهروب صورته من روحى.

أحسست بكائنى الضئيل يوم فراقه يملأ أعماقى مخففًا وحدتى، ربما يكون وجوده تعويضًا عن نعمة الأب، ربما لظهوره إشارة طيبة للخير الكامن بروحى.

أترجل وسط الحى الممتلئ بالعربات الكارو والسيارات المتنوعة، يجتمع صبية بملابس ممزقة فى الخرابات وعلى الأرصفة مذهولين من لون السماء، يحدث جيرانى أنفسهم فى الطريق كأنهم بين عائلتهم، يبيع أهل السوق ويشترون بدأب، كأن الله خلق الكون للتداول والمقايضة.

أصل لنهاية الشارع الذى يقسم حوارى الحى لنصفين، أُفاجأ بمنازل خشبية بعيدة، مملوءة بالنور، مشيدة فوق أشجار عالية، تظهر شبابيكها المفتوحة وسط حدائقها المرتفعة فوق الأشجار كأنها الجنة.

أجلس على الرصيف، متسائلاً فى حيرة عن مكان البيوت الخشبية التى لا يراها إلا عقلى، كلما سألت أهل الحى عنها، سخروا منى قائلين: "ارجع يابن الخرفانة لحسن تتوه"، أحلم كثيرًا بزيارتها والتمتع بأشجارها ونور براحها، أتمنى يومًا السير فوق حشائش حدائقها مذهولاً من منظر الحى الذى تنظر عليه عينى من هناك على ظلامه.

الليل يدخل والأسى يحل على قلبى، وأنا مازلت أسير فى الشوارع المحيطة بمنازل الحى الضيقة، أكوام القمامة بكل مكان، الكلاب والقطط تنتشر بالحوارى تبحث عن الفئران، تقابلنى تجمعات بشرية مختلفة الألوان والأصوات تتحدث بصوت عالٍ فى كل شىء، أحسهم كأنهم جيوش النمل، لكن السحب السوداء ملئت السماء، وعاقت عيونى عن رؤية القمر.

دفعنى "منير" بضلوعى طالبًا عودتى للشقة، قائلاً: "كفاية كده يا عم "منسى"عندنا أحلام كتيرة وهم تقيل".

"تخاريف"

منذ أزمنة بعيدة نشبت حروب الرؤية بين الأم الجليلة والأرباب العماليق، وحين انتصرت على الغيلان فى موقعة المجاديف ، قرر زوجها المتعالي بعظمة وتباهٍ خلق الأرض، حلم مثلنا بجنة فسيحة مزروعة بالورد والنعناع، انطلق عبير الربة بأركانها الفسيحة، حولت رائحتها البديعة النار إلى نور متلألىء مشعٍ بالسلام، وكاد النهر الخلاب لدفئها أن يفتك بعقول الأرباب الخونة التى أسرهم المتكبر بجحيم العذاب وحضيض الجحيم!

تيقظ الجبار، وقرر بناء الجدار الذى يفصل جنته عن ممالك الشر، خوفاً على ضياع هوية مخلوقاته، شعر برائحة الأم الجليلة التى ملأت الكون، فأمر بخلق أشجار الشوك، ليؤمن أعماقنا بحكمته فى التوازن، دعا فى ساعة رضا أطهر مخلوقاته لرؤية خبايا اللوح المحفوظ، ليفهموا سر إدارته للكون الفسيح.

حاولت كائنات مسكونة بطاقته المتنقلة، هدم جدار السور، سمعت الأم زئيرهم ، فسلطت على وجوههم الصفراء النور فاختفوا، لكن ملكهم جمع النمرود جيوشه من المغاوير والبرابرة، فصرخت فاقعة عيونهم اليسرى، فهربوا مستكملين حياتهم بعين واحدة و نصف وجه، معوضين فقد النطق بتوحشهم.

لاحقتهم و"خصت "أعضاءهم، مدفئة قلوب المحرومين من الحب بالأمل، وأوقفت جحافلهم وفكت أسر الملائكة، وصرخت بتعاويذها لينطلق الأبرار وراءها، ولولا قوة الأم المتجددة لهزم النماردة الخالق المتعالي وأداروا الكون.

تنتشى أنثى النمرود داخل الجحيم بتعذيب أجساد محبيها وحرق أعضائهم لحرمانهن لذة القذف بفروجهن، رغم انتصاب "ذكورهم" التى تزيد عن ألف متر، يختفون عن عالمنا هاربين بمجرد ذكر اسم الربة.

ألمح صديقتى "بهية" ترفرف بالسماء، يدفعنى بريقها لملاحقتها وتشمم عطر زهرة الحقل السحرية، تتحول أرواحنا لأمطار هادرة، يسرى نسيم الريحان بكياننا، فنتحول لأشجار ممتنة لأنهار النور المتدفقة فى قلوبنا.

الآن تتحول "بهية" لشمس ، تحتضن طيفى لنسبح فى السماء، نتحول لسحب بيضاء، فيغمر الكون المياه الصافية، تبتهج الكائنات منتشية برحيق العطاء.

عليكم الدخول بالحاضر الغائب وهدم أسواركم، والتحول مثلنا لنقاط منيرة، لتشعروا بالنور الدافق بأعماقكم.

نتحول بخفة الي يمام مغرد، ونرفرف على مدنكم الصغيرة، فنتفاجئ بخنق الروح، فنسجد للربة آملين ظهورها، فتنفخ من روحها الرحيق المتجدد للعطاء لتخلد بمجدها نعمة الحياة.

أثناء استمتاعي سمعت صراخًا وعويلاً فى الحى، توجهت ببصرى ناحية السوق، شاهدت صراع "مهجورة" مع أعدائها، أحسست بالشياطين تقاتل صديقتى "بهية" وهى تملأ قلب المرأة بالنور، انزوت "بهية"بسيفها البتار، كررت تعاويذ الربة فاحترق قلب الشيطان الأسود فى الجحيم.

انزوى ابن الموت بقسوته، قائلاً: "نحن الأشرار لا يمكن هزيمتنا " ، وصرخ الغول والشرر يتطاير من عينيه: "أنا ملك الغيلان، أكمن بأعماق البشر الضعيفة، لأنشر الذل وأكسر النفوس "، امتلأت السماء بالجنون الزرق الذين صرخوا: "نحن رسل البغض لا يعيق حركتنا طول الجبال، وأبواب السماوات الموصودة "، سجدوا جميعًا لملك الشر الملطخ وجهه بالدماء.

قوت "بهية" أعماق المرأة الحزينة، قادتها لعالم النور، طهرت روحها من الدنس، ملأتها بروح الأم الجليلة ، عادت روح الشيطان لعقل "مهجورة"، فغرست "بهية" سيف الأم فى قلبه صارخة فى البرية، فحضرت الربة ، وتحول الشيطان مختفيًا لهشيم من القطران .

يتجهزون الآن للاستيلاء على كرسى العرش، يجتمعون كل ليلة بـ"حضيض" الجحيم ويرسمون الخطط ويتداولون، منتظرين ساعة الصفر، لكن روح الربة تحمى ظهر الجميع من غدرهم.

لا يعرف عالم النور الدماء، لكن البشر المتحدثين بلغة الطمع المستمتعين بتمزيق أجساد بعضهم وحيواناتهم، يرهقون بهاءنا ويخفون كنوز الشمس فى أعماقهم، لكن أم الرحمة تملأ أفئدتهم بورود حمراء، آملة بلوغهم النجاة.

تغطى قطرات الندى البحور المتلألئة والمياه الغارقة فى محيط الزهور، تذيب الكون فى التآلف والبكارة، تغنى الأشجار ليندفع السلام متدفقًا كالموج بأرجاء الدنيا، مجددًا أعماق الجميع بالمحبة.

تتراقص "بهية" على جبال العشق وثلوج الأمل، ينتشر لحن السمو من حولى ويجول بخاطرى طيف الربة صاحبة رسالة الخلود، يصدح صوتها صارخًا فى البرية: "نعم يمكنكم الوصول للكمال، طهروا أعماقكم من الشر، مددوا أجسادكم فى سكون بأرض الحقل السحرية، كأنكم جذوع مضيئة، وقتها ينطلق النور وتنعموا بحياتى".

يناديني صوت حبيبتى مغردًا، أقترب من رائحة جناتها، تبتعد فى حياء، أنظر لجمالها قائلاً: "من أطلق اسم بهية على نورك؟" ترد بعشق: "اتركنى الآن يا "منير"، فلى إنسية أعيش بأعماقها وتحتاج لوجودى".

أُقبلها وأهيم بشعاعها وهي تدخل رحيق الحياة فى روحى، وتسرسب "مية المُحَيَّاه" فى قلبى، وتختفى سعيدة عائدة لروح "مهجورة"، أعود لأعماق صاحبى متدفقًا بالحب، ثائرًا معه

لخارج أسواره، أحس بحزنه لفقد معنى الأمل ، فجأة قال بأسى لامرأة صبورة: "دقيقة الدولى بعشرة جنيه يا وليه ، انت متفهميش !! "

لم تهتم المرأة بقسوته وردت: "ابنى "حسن"يرغب فى سماع صوتى "، وقف رجل غريب بينهما قائلاً للمرأة: "لا تتعبى نفسك يا "صبرة"، فإحساسه الميت لا يفهم إلا فى أنواع التليفونات وأسعار كروت الشحن "

ينسى صاحبى مداواة والده لآلام الموجوعين، ويتذكر فقط صراخه على أمه، يوم صعود روحها لمملكة الخلود ، لكنه تركنى بألفة لأقود مصيره؛ ونسى عقله الفرق بين أصابع يديه وشعر رأسه، كلما اختلى بنفسه تساءل مدهوشًا عن سبب ولادته أووجوده.

يرفض احترام الناموس، والعيش ممتنًا بنعم الربة، يعود لنقطة بدايته كلما حلَّت به مصيبة، متسائلاً بغرابة عن مصير الروح بعد فناء الجسد، يدفعنى جنونه للحيرة، ولكن ماذا أفعل لأغذى ضميره الحى بالسلام؟

"مهجورة "

أغلق باب سنترالى وأدخل المطعم متناولاً وجبتى، دون سماع أصوات الملاعق والأطباق الصادحة ، أتفاجأ بظهور "منير"قائلاً: "بالهنا والشفا يا معلم"، أتجاهله وأمضى إلى المقهى، أتبادل النكات مع الرواد، مراقبًا حركات لاعبى المصارعة، أدخن الشيشة وأشرب الشاى البربري.

أعود لشقتى بعد منتصف الليل، وأدخل الحمام مستمتعًا بالدش الساخن، أغلق نوافذ الحمام والمطبخ والحجرة وأنام عاريًا.

يترنح بجوارى فى الصباح مبتهجًا بمرافقتى طوال الليل، قائلاً : "صح النوم يا مولانا "، أعبر من فوقه مرتديًا ملابسى، أترجل وحيدًا على أسفلت الشارع ، يبادلنى باعة السوق الابتسام، آملين فى رزق وفير.

يجهل الجميع وجود النقطة المنيرة بحياتى، أفخر بتفردى بمكنون روحي، أعيش دونهم بعوالم أخرى، اليوم يمر سريعًا وكأنه دفقة مياه تتسرب من بين أصابعى، أجرد كروت الشحن وأسجل كل شيء بالدفاتر، وأغلق السنترال عائدًا إلى شقتى.

أجلس على كنبة الأنتريه مندمجًا فى لحظة السكون، مازال عقلى المتقد يبحث عن مبرر لوجودى، منذ وفاة أبى ارتبطت بجارى "مطيور"وزوجته "مهجورة "، يدخلان شقتى أيام الجمع مع أولادهما، ويأخذونى للحديقة الممتلئة بأشجار الفل والصفصاف.

أسمع همسهما من خلف الأبواب، كأنهما العصافير، يحل الصمت المدوى على الدنيا حين يدخل النوم لحجرتهما، فيخرج "منير "من أعماقى، قائلاً: "هتفوق إمتى يا بونا؟"

حلمت فى الليلة الماضية، "بمطيور" وزوجته يدخلان معى مدينة ممتلئة عن آخرها ببشر منحدرين من جبل السعادة، رَّحب بدخولنا أحد الحراس، قائلاً: "أهلاً وسهلاً بضيوفى الكرام، أهلاً بصديقى العزيز "منسى" ".

حال دون تجولنا شخص متوحش عارٍ، أزاح الحارس رأسه بيده التى تشبه الخنجر المعقوف، فطارت رقبته على الأرض، ونظر إلينا قائلاً: "يوم سعيد لخلانى، ادخلوا روح المدينة، واستمتعوا بحياتكم "، هددنا بالوحوش الكاسرة التى تعيش بالخرابات، ويمكنها نهش قلوبنا حيال حيادنا عن الطريق.

يملأ بشر أغراب قلب المدينة الغارقة فى النور، يشاركون بالألعاب السحرية التى تفقدهم الإحساس بقيمة الوقت أو طعم النوم، يتسابقون متواصلين مع عوالم الغيب التى خلبت عقولهم وفتحت مغارة الأسرار.

ناديت على جارى، ففوجئت بالحارس يلقى بجثتى وسط حيات السوداء بوجوه بشرية، نعم وحوش بشرية وحيوانية متعددة بوجوه مغلولة، تجرى شمالاً ويمينًا من حولى، تبحث عن روحى لالتهامها.

أفزعنى الدق المتسارع على باب شقتى، فصرخت بعفوية : "مين هناك؟ طيب، استنى شوية"، حين فتحت الباب، لم أجد أحدًا، خرج "منير" من بين أقدامى، قائلاً بسخرية: "غطِّ نفسك ، جسمك كله عريان يا خويا!"

لا أدرى، كيف تواصل والدى مع الملأ الأعلى، وعاش وسط الناس شغوفًا بحياتهم؟! يشفق على الأشرار والأخيار، ويصنع الأحجبة التى شفت آلامهم، حولت رقيته الرجال لفحول وهم يعاشرون زوجاتهم، فتحت مسمات النساء العواقر ليحملن ويلدن العشرات، سمعت دعاء الجميع بالستر والصحة لقلبه الطيب، لم يتقاضَ مليمًا من أحد وهو يحثهم على الإيمان بأعماقهم التى تمدهم بالقوة والخير.

عاش وسط أكوام الكتب أيامًا طويلة، يبحث عن سر غامض، انشغل بأشياء غريبة لم يفهمها عقلى، كان ساحرًا، يقرأ تاريخك ومستقبلك من تفحص روحك وعيونك، انشغل طوال الوقت بمعانى كلمات لم تُثِر انتباه أحد، لم يدل مظهره قط على اختلافه عن الآخرين، تمكن بمهارة من الانسجام بين عالم النور والحى، يجلس طوال النهار على المقهى يناكف البائعين ويشترى أخر الليل الطعام لنأكله سويًا، بخبرة العارف تمنى حملى لرسالته ليستمر تواصل الملأ مع المدد الأعلى.

ذات ليلة لا أنساها، أغلق حجرتى هادئًا ليمارس طقوسه، نظرت من ثقب الباب، لأشاهد "صبرة الداية "نائمة عارية أمامه، أمرها بلحس الدم النازف من بطن قدميها، قامت كالمجنونة تجوب الشقة الضيقة، أمسكها كأنه يلجم حصانًا، تحكم ببراعة فى زمام جسدها وعيونها، طالبها بالتوقف، ردت متمردة: "لا أستطيع"، سمعتُ أصواتًا لطيور جارحة وحيات سوداء ونمارد أشرار يطاردون المسكينة التى تصرخ وهم يهرولون وراءها، كانت تهذى واصفة أشكالهم المرعبة، وأبى يواصل صمته والشياطين تمزق ضلوعها.

فى لحظة فارقة انتفض زاعقًا بأصوات موحشة كالذئب ليبتعدوا عنها، ارتمت على الأرض مسلوبة الإرادة، وهى تردد: "هربوا يا شفيعى، والنبى خلاص أُعفُ عنهم، خرجوا خلاص يا خويا، سيبهم فى حالهم يا قادر يا كريم"، رغم عريها أخذها بحضنه وأدخلها الحمام، دلكها بمياه دافئة مخلوطة بالحب المتدفق من عيونه، سمعته يقول "لصبرة": "تحولت الدماء القذرة فى قلبك إلى بحر من السلام".

عادت الداية لعقلها، وأغلقت باب رغبتها المتوحشة فى التهام الرجال، لم يتبق إلا أملها برؤية ابنها الذى هاجر لعوالم أخرى.

نام بحضنى مدندنًا بألحان شجية، تذكرها وكررها كثيرًا، حفظها بقلبى وذاكرتى حتى لا تفنى، أصيبت روحى بالوجع بعد رحيله، نَسيتُ وصاياه وعهده، جمعتُ تعاويذه وشرائطه ورسوماته وملابسه وأدواته وخبأتها بالصندلة، وكومتها مع أقلامه وكراساته فى المخزن الملحق بالمكتبة.

تمكنت بمساعدة أهل الحى من تحويل مكتبته إلى سنترال، ردوا دين والدى، آملين بمعاودة المدد، رغم حزنهم لرحيل رجل قدم حياته لإسعادهم، لكن عيونهم الطيبة تُذِّكرنى برسالة عالم الأسرار الذى شفى جروحهم وتواصل بأرواحهم مع عالم الغيب.

أعود من ذكرياتى مرة أخرى إلى الشقة، متذكرًا ترتيب الأسرة وغسل الملابس وإعداد الطعام، أتقدم للمطبخ منتظرًا تعليقات "منير"، كأن ظهوره يمدنى بالأمل ويدفعنى لتحرير عقلى من ظلام المنازل وخرابات الحى.

"تسالى"

فى لحظة البداية التى لا يعرفها إلا ربة الأرباب، امرت الكنز المخفى ليقول لنفسه: "لتكن الأرض والشياطين والملائكة والجبال والأنهار والسماء والنجوم"، ونفخ فى الطين من روحه، فخلق الإنسان ومع مرور الوقت ملأ الحقد قلوبهم، ونسوا الخير الدفين بأعماقهم، حينذاك سألهم المتعالى قائلاً: "ألست بخالقكم؟! " اندهشوا ورددوا ساخرين: " نشهد بقدرتك ونسبح بحمدك يا جبار!"

أبدع هؤلاء خلال آلاف السنين أحداثًا مرعبة، افتخروا بأنفسهم وتجاوزوا حدودهم واهمين قدرتهم على صنع حاضرهم، ومصيرهم، ونسوا أن أعماقهم هى منبعهم ومرشدهم الوحيد للسلام.

اعتقدوا أنهم أنداد للقوى البصير، تخيلوا سيطرتهم على الدنيا، لكن العالم بالأسرار ومسيِّر المراكب والبحار، قهقه عن آخره من جُرأة هذا المخلوق، الذى لولا شفقة الربة لأهلك الأرض بمن عليها.

ورغم نعمتها على عباده الحائرين الذين يجوبون الشوارع والأزقة، محاولين تقليد نقش لوحها المحفوظ، معتقدين اكتشافهم السر الذى سيعرى الحقيقة ، لكن الشياطين تخدعهم ليخوضو حروبهم، ويتباهوا بحجم الدم المسكوب ، ويسجلوا الانتصارات الواهية لإشباع نزواتهم، وينشروا الظلام والفزع باعتبارهما رمزًا للنجاح.

نقشوا مصارعة الغيلان للسميع البتار فى لوحة عجيبة، رسموهم مزهوين بأنفسهم منتصرين على جلالته، أظهروا الغول الفاجر واضعًا الرمح فى عين الخالق، لحظة انشغال قداسته برؤية البشر الساجدين بمحراب جبروته، فخر صريعًا والدم ينزف من عينيه متوسلاً الرحمة من قلوب الغيلان القساة، خبؤوا اللوحة والرمح وسط جبال الجليد، معتقدين انتصارهم يومًا ما والتباهى بتاريخهم.

لونوا عيون الملائكة فى خلفية اللوحة مذهولة من ظلم ملك الغيلان، زينوها بطريقة غادرة، أحزنت عيون الأم المدهوشة من عقل الشرير الذى آمن بالقسوة كطريق بديل لجنتها.

لكن بشرًا أكثر رفاهة تمكنوا من تحرير أرواحهم، شعروا بالسكون والخير الدفين بأعماقهم، سمعوا نسيم الزهور وخرير بحر المودة ونور الربة ، حسوا بأعماق الحوريات المنيرة، خلطوا وجوههم بالموسيقى التى حفظتها سيدة الخلق فى الجنة، ليرددها البشر على مدار السنين فى منازلهم ومقاهيهم، وهم مبتهجون راضون بمصيرهم، فاستحقوا العيش متنعمين فى رضاها.

فى عالمنا لا يوجد إلا السعادة، ولا نحتاج لكل هذه التفاهات التى يبدعها البشر كى يحسوا بالانتشاء، لا نحتاج أسقفًا للحجرات أو حساباتٍ بالبنوك أو خلفة الأبناء، أو الارتباط بامرأة أو رجل باعتبارهم كل المنى، فقط نحتاج للسكون لنجوب رحاب الكون ونتشمم طعم براحه الخلاب.

من الأسى أن أُذكِّركم أن الوهاب مَنَّ علينا بالاختفاء بأعماق النفس البشرية لإعادة التوازن وجلب النور لأرواحهم، لكن الإنسان اختال بنفسه وتحدى قدرة الفتاح وشيد الكنائس والمساجد والمعابد وحجرات المنازل منبهرًا بباحاتها الواسعة، معتقدًا أن السجود بتلك الأماكن يغنيه عن الخشوع فى محراب سيدة الكون.

يتناسون بجهل أن المنصف الذى خلق كل شيء، يجب احترام قوته ومجده، ليتدخل في لحظات نسيان البشر دورهم، معيدًا العجلة لدورانها، والكرة لتوازنها، مذكرًا الناس بأعماقهم لينتشوا من جديد بروح أم النور التى تمدهم بالأمل.

فقدوا ذاكرتهم ونسوا أحلامهم التي تزيح الكرب عن قلوبهم، اختاروا بجهل طريقًا وعرًا، يعيقهم عن التواصل مع المدد الأعلى، تناسوا النور وحرقوا مشاعرهم ودهسوا أحلام الأم بأفئدتهم، مستكملين طريق الغدر الذى يقودهم للهلاك.

أدى ظلام أرواحهم لامتلائهم بالغضب، فصارعوا الخير وقاتلوا السلام، مزقوا لحوم الحيوانات وقطعوا الأشجار وحرقوا الزرع بعيونهم الشريرة، جهزوا العُدَّة لحربهم وحرقو القلوب العامرة بنار جهنم، لكن روح الأم أعادت طريق الخير، وسمع الخافض الرافع وصاياها لإيمانه برفاهة قلبها وقدرتها فى مد الكون بالأمل المتجدد ليلة قمر الحصاد.

حين رفضت مخلوقات غريبة وصايا الربة واختالت متكبرة بحجمها الضخم، سائرة بسوادها بين المجرات راغبة فى التهام الأرض والسماوات، سلطت عليهم الأم روحها التى سحقتهم بنورها، اختفوا خارج كوننا لمجهول لا نعرفه، حينما يغفل الخالق عينه نسمع صراخهم فنرتعب خائفين، صارخين فى الملكوت الأعلى ليفيق من غيبوبته، فتهتز الأرض والكواكب من حولنا وهم يغادرون عالمنا هاربين، نسمع صراخهم قائلين: " نحن مغاوير الكون، لا نهاب الموت ولا يفاجئنا الوجع، سيأتى يوم وندك الكون فى الجحيم، لإجبار الأم على رؤية وجوهنا، والاعتراف بوجودنا كباقى المخلوقات ".

أحس بنور الربة يقترب من روحى، فيطمئن قلبى متيقنًا من هروب الأشرار أبحث بشغف عن محبوبتى "بهية"، أسعى بروحى لتشمم رائحتها بأرجاء شوارع الحى ومنازله.

أحس بقرينى "منسى" ملبوسًا بروح المغاوير، راغبًا فى تحطيم أثاث شقته، صرختُ بالبرية، فاستجابت مرددة نشيد الحب بأعماقه، حرقت قلوبهم لينزووا فى الجحيم متلاشين تدفق نورها بأرجاء الكون.

احتضننتى "بهية" وهى تملأ قلب "مهجورة" بالخير، لكن "مهجورة" ترجلت لشقة "منسى" تطلب منه "مَجْمَع "الألفة والمحبة، فخدعها وانزوى بجسدها فى المطبخ، مدعيًا تمزيقها لملابسه.

زجرتنــي "بهيــة" محاولــة دفــع صــاحبى لعــدم إتيــان الرذيلــة، حاولــت وقــف جنونــه، لكــن هيهات للروح المذهولة، يمشى كالنائم راضيًا بمصيره، سعيدًا بعمله وروحه المغمورة فى الحيرة.

حين وضع قضيبه فى فرج "مهجورة" صرخت "بهية"، محاولة إدراك نورى وسط عيونهما التائهة، لامستْ وجهى بأناملها، اقشعر بدنى، فقذف صاحبى الماء الدافق، متلذذًا بأفخاذ الجارة الطرية.

بكتْ "مهجورة" وعادت "بهية" لحضنى خائفة من صراخه، طبطبتْ عليها ووضعت رحيق الملائكة بقلبها، فقامت الجارة من على أرضية المطبخ وعادت لشقتها، ناديت علي محبوبتي: " يا "بهية"يا نور قلبى!"

التفتت ناحيتى حزينة وقالت : " شوف صاحبك جرى له إيه؟! " هرولت مسرعاً لروح صاحبى، مازال كعادته مشغولاً بأثاث شقته، عاد من البلكونة حزيناً متجاهلاً نصيحتى بتغطية جسده، نظر لنفسه بغرابة باحثًا عن معنى الإحساس بروحه، لا يهم كل ذلك، فربما يأتى يوم ويفهم سر الحاضر الآتى.

"ليمون"

أدخل المطبخ غير عابىء بالقذارة التى تملأ الأرضية، واضعًا البراد على البوتاجاز، متأملاً النار التى تلتف حوله، أصب الماء المغلى بالكوب، وأجلس فى الصالة مستمتعًا بمذاق الشاى.

أحس بصوت أبى الدافئ يقوينى، يوم وفاته تجمع الجيران وسألونى عن مكان بلدى، وبعد مداولات قرروا دفنه بترب المساكين، لفوا جثمانه بقماش أبيض ووضعوه فى سيارة بيضاء ، ساروا حزانى حاملين النعش، وألقوا جسده بعين التربة الغارقة فى الرمال، وعادوا بى إلى المنزل.

لم يتحدثوا بشىء، تركونى أتدبر حالى، نظروا فى وجهى وودعونى قائلين:" البقاء لله يا"منسى، شد حيلك يا بنى!" خلعت ملابسى ودخلت الحمام، أداعب الماء الرطب المتدفق بين خصلات شعرى، متلمسًا قطراته الباردة بين أفخاذى، متناسيًا صوت المقرئ ورائحة القبور.

أكلت يومها من أطباق مهجورة "أصناف الطعام التى أحبها، ملأ البكاء عين "مطيور"وهو يقدم صينية اللحم المفروم، قائلاً:" كل يا يابن أخويا بالهنا والشفا".

أتذكر ملامح وجهه مصطحبًا عمى "زخارى" من دكان البقالة كل أحد، ليزور الكنيسة ويستمع معه للقداس، ينظر من شباك المبنى العتيق للبراح المحيط بأسوارها، غير عابئ بصوت القسيس ونواح الموسيقى.

دفعتْ أكوام القمامة والحوارى الضيقة عمى "زخارى "للكسل عن زيارة الكنيسة ، لولا إلحاح أبى لنسى الرجل مكانها، الآن لم يعد بعقله سوى عبوات السكر والأرز والمكرونة وأنواع الجبن، ينام بالمحل ليلاً، يوقظه ابنه "نصحى"فى الصباح، يأخذه فى حضنه، ويعطيه سندوتشات البسطرمة، ليأكلها بفسحة المدرسة.

يعيش وحيدًا وسط أبناء دينه، خوفًا من طمعهم فى رزقه، ويداهن أهل السوق الموحدين بالله، وعندما ماتت زوجته قرر أستكمال عمره الباقى بالمحل، تغسل "صبرة" ملابس ابنه وتنظف منزلهم، تطهو الطعام لتسدد ثمن الخبز والجبن التى تسحبها من المحل على المكشوف.

نظر "منير" فجأة فى وجهى بسخرية ، حاملاً قاموس أبى فى يديه، قائلاً: " امتى هتقرأ وتكتب وتفهم؟" واستكمل مشيرًا إلى قلبى، قائلاً: " كل الأجابات هنا".

تجاهلته ونظرت من البلكونة فلمحت طفلة صغيرة، تهرول باكية خلف أمها مع أطفال كثيرون يحملون بأياديهم حقائب قماشية، ويسيرون فى جماعات، غير عابئين بصراخ السيارات التى تطاردهم، أعاد صوتهم صورة الأب الذى علمنى معنى الحروف فى لغة البشر.

فى المرات القليلة التى خرجنا بعيدًا عن شارع السوق، كان يقف وسط أكوام الكتب المتناثرة على الأرض، يبحث بجد ودأب عن كتاب يعرف قيمته وعدد صفحاته.

يجلس فى مقهى واسع، ليشرب فنجان القهوة السادة، ويروى عطشى بكوب الليمون البارد الذى لم أنس أبدأ مذاقه، ويسألنى بود: "عايز حاجة يا منسى؟ آيس كريم، شيكولاتة، قول يا بابا متخافش ".

يسحب يدى لمحل العصير القريب من المقهى، يضع حقائبه على الأرض ويطلب "اثنين لمون ساقع"، يشربه بتدفق كأنه عطشان للأبد متجاوزًا العطش وصهد الشمس، فأشعر بمذاقه الرائع فى جوفى.

فى الليالى الطويلة يُمجِّد أبطاله الغائبين الذين تمتلئ بهم مخيلته، يدهشنى بتعليقاته عن قوة الخير بأعماقنا، قبل موته بلحظات وصانى على قاموسه الممتلىء بالعلامات التى كافح الأجداد لاكتشافها.

يذكرنى "منير" دائمًا بأفعاله، يقرصنى من أصابع قدمى لأفيق من غفوتى، قائلاً: "البس هدومك يا عم، وارجع من التوهة ".

ذات ليلة مقمرة لن أنساها صحا ابي من نومه مفزوعًا، ودخل البلكونة متحدثًا مع القمر، عاد بعد ساعة لحجرته مرافقًا روح خليلة بهية نعتها بالعذراء، نامت على سريره وسط أشيائه الغريبة، بكى بجوارها ساعات وهو يتلمس من قلبها الرحمة لأهل السوق والجيران الجاهلين قدرتها فى محو الظلام.

حدثته عن الخطايا التى يرتكبها الجميع، كأنها تعيش بيننا، واستجابت لطلباته مشفقة على روحه الطاهرة، في هذا الليلة جلست وحيدًا بالبلكونة أُحَدِّث القمر، متمنيًا رؤية وجهها، فسمعت صوتها وهى تغادر شقتنا مبتسمة بوجهى، قائلة: "عليك بالصبر وإعداد روحك لاستقبال قمر الحصاد ".

الصراخات تتعالى فى مدخل البيت، الجميع أصيب بالجنون، الشر أصبح محراب الباعة والجيران، من يدفع ثمن المياه والكهرباء والصرف ومسح السلم؟ الجميع يتشاجر ويصرخ دون إجابة عن الأسئلة المكررة كل صباح.

صوت "محروسة"زوجة صاحب المنزل يصدح من المنور، كأن وجودها علامة على الصبر، تفض الشجار وتقسم المبلغ بالتساوى على السكان، وتتحمل أكثر من نصفه ليعودوا لشققهم مبتهجين راضين، تفعل كل ذلك من وراء زوجها الشيخ "سعودى"، آملة فى استمرار الجيران فى الحياة.

لكزنى "منير"لأفوق من غفوتى، قائلاً: "صح النوم ، كفياك أحلامًا يا خويا، عندنا شقة عايزة تتوضب، وسنترال عايز يتفتح، اصح يا عم، كفاياك أوهام ".

"تمرد"

يوم حزين يمر ويدفعنى للاختفاء مع صاحبى كالفأر وسط سنتراله، تجاهلنى واهتم بنبرة أصوات رواده، ساحقًا أعماقه بخوفه، معجزا روحه عن التحليق.

يخذلنى برغبته فى كشف حجاب الحقيقة التى عجز القهار عن فهم سرها، يتساءل كالمغمى عليه عن سبب ترك الشر يعيث حرًا طليقًا، ودون إجابة تعود روحه خطوات للخلف، ليبدأ مرحلة العشق من أولها، رغم محاولاتى ليسمو بروحه فوق احتياجات السوق، لكنه لا يسمع إلا صوت الحيرة التى مزقت ضلوعه.

يتناسى صراع الغيلان الذين تمكنوا بسحرهم من دخول الجنة من ثقب الجدار الذى شيده الخالق ليحمى منتجعاته الفسيحة، تركهم ليتشمموا رائحة نعيمه، لتعليمنا سر التوازن.

أسمع أحدهم يصرخ من حولى والشرر يتطاير من عينه، قائلاً: " أنا المغلول ، عبد النار ، أكره الربة لإيمانهما الخاوى بالقدير الذي يحرق مشاعرنا ".

صرخ فى أنصاره فامتلأ حى صاحبى بوجوه مرعوبة وعيون متحجرة، التفوا حوله ساجدين خاشعين ليملأ أعماقهم بالسواد، انزوى بعيدًا عن ساحة العبادة مع أنصاره، طاردهم أنصار "الجنون الزرق "، ولم يرتعدوا إلا بعد ظهور "العين الحمرا "للشيطان، نفخ فى لهيبهم بغل فعادوا مهرولين للمعركة.

أشعل الشيطان النار بأجساد الميتين ليحرق إحساسهم، قائلاً لأنصاره من العفاريت والأشباح: " أنا الظلام ويجب نشر رسالتى ليعرف الجميع قيمتي "، اندهش الأرباب الخونة من سواد قلبه، قائلين: "تجوب كونك يا سيدنا، ناشرين الكره والبغض والحقد، ألا ترى لنا دورًا بديلاً عن بث السواد ؟ "

بكى ملك الشر من عينيه قطرانًا أزرق، فاشتعل الجحيم وتفحمت المشاعر، فتيقنوا بقوتهم وحكمة الخالق.

تركت ساحة الجحيم وطرت بعيدًا مستمتعًا بعظمة جلالته، اجتازت الغابات والمحيطات سعيدًا برؤية الملائكة الذين امتصوا ألوان بحوره، طاروا فوق الجبال والأشجار بفعل رغبتهم فى دخول الجنة.

سمعوا موسيقى الجنة الصادحة بألفة ومودة، أحسوا بهدير المياه وهمس أوراق الشجر ولون الزهور المختلط بالغابات وقمم الجبال وأنهار الجليد، شكلوا بنورهم لوحة الملأ الأعلى التى أبهجت الأم فى نعيمها. امتلؤوا بالنشوة وعلموا الغيب، وشموا بأرواحهم رحيق السعادة.

ورغم مباركة أمنا روح البشر، ووصاياها على قلوبهم العامرة، لكن الجاحدين أنكروا حقيقة لوحها المحفوظ، جدفوا بالمستنقعات ووقعوا فى المحظور، أشعلوا الحروب ودمروا القرى، وحرقوا المحاصيل ونزحوا الحب، فاستحقوا حضيض الجحيم ومعاشرة "الجنون الزرق ".

نقشوا على جدران المعابد ووسط الجبال والثلوج، صور اقتتالهم وسفكهم أرواح خِلاَّنهم، فخورين بالدم النازف من اللوحة على الأرض، كأن الشر هو الذي يخلق في قلوبهم الأمل.

يدخلون المعركة تلو الأخرى على مدار تاريخهم الطويل، ممتطين جيادهم ودباباتهم وطائرتهم ليدمروا أنفسهم وممتلكاتهم من أجل نفس الرغبات الزائلة، يحرقون بعضهم ببراءة، دون النظر فى أعماقهم التى ترفض البُغض فيشقون الهدوم حزانى على فجيعتهم.

ضجت السماء من ظلمهم فانهمرت السيول وكادت أن تخفس الأرض بالنجوم، لولا صوت الملائكة لانهار الكون، أقامت الربة من هالتها جسورًا وسدودًا منيعة حمت عرش السلطان.

وبلحظة فارقة صرخت الملائكة فى الفضاء، قائلة: "يا قلوبنا الدامية ألا يكفيكِ عبادة وزهدًا، دون أمل؟ علينا مواصلة الرحلة، لنكتشف الحقيقة، خُلقنا لنعين الخالق، نجوب عالمه متيقظين، نطمئنه على سير الأحداث التى خطَّتها ربة الكون فى لوحها المحفوظ، لم نكل من العمل، أو الأوامر اللامتناهية، نسعد بدورنا لقربنا من جنة جلالته التى تفوح بالفل، لكن ألا يكفى كل هذا العمر فى عملنا؟ ألا يمكن أن يُخلق لنا دور أرقى من مراقبة العباد وحثهم على الطريق القويم؟"

عندما سمعت الشياطين نحيب الملائكة، أقاموا عرسًا لأنصارهم، معتقدين خرق قلوبهم الطيبة، لم يفهموا حكمة الأم فى تجديد روح الأخيار، ليبدؤوا عملهم من جديد، كأنهم نبات بكر يحتاج حصاده لسنين طويلة من الرعاية والرى.

مع ذلك لا يفهم صاحبى دور الشر فى نصرة الخير، يتناسى الأعماق المملوءة بالحب ويسمع صوت الجحيم حائرًا فى وجوده، يخرج من شوارع الحى المقسوم ويقف فى نهايته ناظرًا للبيوت الخشبية وسط حديقة السماء، دون أن يدرى بأن أرض الحديقة تملأ أعماقه.

فجأة أظلمت الدنيا من حولى وغابت روح "بهية"، استهلمتْ خير الربة الطيبة وغردتْ لعودتها، حتي "مهجورة" استنجدت بالملائكة لإعادة خليلتى، فجُبت الحى مخترقًا غباره وخيوط الشر الممتدة فى سمائه، وصلت لشاطئ نهر صغير، تنتشر الحدائق على ضفافه وتمتلىء بوجوه بشرية مذهولة.

وجدت بهيتى تنام فى سلام بين الحشائش مستمتعة بصوت الضفادع، رغم الظلام الذى أحسه بقلب الجارة لابتعاد "بهية"عن روحها، لكن صوت الأم أعاد روح صديقتى من وسط زهور

الحشائش لقلب الجارة لتشعر بالأمان، عادت "مهجورة"مسرعة للحديقة بطعام النور سعيدة باحتضان "مطيور"وأولادها، لكن ابن الموت لم يتركهم بحالهم، فجمع الصبية الأشرار رافعين السيوف، مطالبين الجميع بالرحيل لحرق الحديقة.

خافت الجارة من الشر البادى فى عيونهم، فصرخت فى الجميع بقوة المدد التى وضعتها ملهمتى فى قلبها، انفجر الحى فى الصراع و"مهجورة" تطارد الصبية الهاربين وحدها.

انطفأت الحرائق التى كادت تقضى على الأشجار، وعادت الزهور الذابلة تلمع وسط الحشائش المحروقة، وقتها ملأت المرأة الأطباق بطعام الرزق من جديد ليأكل زوجها مذاق الروح لامرأة فخورة بنفسها.

دخل عليهم بالحديقة شخص غريب، استقبلته "مهجورة" بحب قائلة لزوجها: "حمدى السواق ابن خالتى"، جلس معهم متجاهلاً وجود "بهية"، قائلاً "لمطيور": "عشت كثيرًا مع زوجتك فى بيت واحد، بعد وفاة والدتها تكفلت أمى بتربيتها، سافرت بعيدًا قبل زواجك، وعدت معتقدًا انتظارها ".

قاطعه الجربان وهو يحتضن أبناءه قائلاً: "القسمة والنصيب يا أخ حمدى!" بكت الزوجة على حال السائق الذى فقد أمه وأباه فى يوم واحد، ولم يعد له فى الدنيا أحد.

قال "حمدى" بأسى: "لا تحزن من ترددى على منزلكم وزيارة أختى، رد الجربان مستاءً:"أهلاً وسهلاً بك فى أى وقت"، واستكمل ضاحكًا: "وان كان حبيبك عسل!!" انتشوا جميعًا وناموا على أرض الحديقة شبه المحروقة التى جمعت أرواحهم، وأذابت الجليد فى قلوبهم، فتذوقوا طعم الألفة التى أعادتهم لمنازلهم، آملين بجمعة أخرى وغذاء جديد للروح تعده الجارة الطيبة.

شىء غريب يتدافع بكيانى ويحرضنى على بهيتى، انشغلت مع "مهجورة" بالكائن الضئيل المعشش في روح "حمدى"السائق، شاهدتها تراقب يديه وهو ينظر بعين الزوجة، آملة بزيارة قرين السائق لشقة الزوجة المذهولة.

تواصلت "مهجورة"مع حمدى، قربت المسافة على كائنه الضئيل ، استمتعت "بهية" بضياء القرين، حزنت لدخول الشك بروحى، فأميرتى لايمكن أن تغيب عن عينى، أعود متأسيًا من برود صاحبى وإهماله التواصل مع جارته الرقيقة التى تعشق البراح، بطريقته الحائرة سيفقد "مهجورة" وأفقد بالتبعية روح " بهية ".

يالحزنى على حيرته! فرغم أن النسيان نعمة، لكنه يمحو الذاكرة، ويأخذ الإحساس فى طريقه، ويجرف المشاعر وتصبح الأعماق خالية من كل شىء.

نسى حلمنا بالاندماج فى روح واحدة، مكتفيًا بالعجز الذى يهدد قلبه الخاوى بالجفاء، تجاهل الخير والبراح الذى يمد روحه بالسلام وعاش مستمتعًا بضجره.

تناسى اتفاقنا بالعيش كروح متآلفة، دهس مشاعرى ناكرًا حلمنا السحرى بالكمال، نسى بحزن ممزوج بالألم حتى نفسه، وعاد كارهاً لكيانه الذى يُمده بالنور، داس على وصايا القديرة لأكون دليله فى الأحلام والأسواق، واكتفى بالعيش كأهالى الحى.

يريد بحياته الزائلة، تغيير الناموس دون أن يفهم الغاية من وجوده، يرفض حمل الرسالة ليعيش وسط جيرانه دون إحساس أو أمل.

رغم طلوع النهار وسطوع الشمس يحتاج لنورى، لمعرفة طريق الحب وتجاوز الحيرة، أدخل بروحه أكثر وأدفعه للإحساس بقلب الجارة الحالمة بقلب رجل رحيم.

"مفجوع"

تحسستُ صوت جارتى من خلف الباب، قائلة: " يا منسى"، افتح يا وله"، أسرعت واضعًا يدى على "الأكرة" ، استقبلت صمتى فى دهشة، قائلة: "منزلتش شغلك ليه ؟"

وضعت يدها فوق جبينى، وبين خصلات شعرى، واستكملتْ ببراءة: "صحيح دا النهاردة الجمعة، بس اوعَ تكون تعبان يا ضنايا "، أغلقت الباب بهدوء، وسألتنى مرة أخرى: "عندك شوية سكر؟ "

سحبتنى وراءها ودخلت المطبخ، أحس بنبضها المنتفض فى قلبى، تتراقص نهودها البضة بحلماتها البارزة، أشعر بأردافها النضرة تتلألأ داخل أعماقى،وهي تقول بصوتها الناعم: "مالك مش على بعضك ليه يا واد؟ قرب منى شوية متخافش"، تمايل جسدها حولى بخفة ، ظهرت انحناءات فخذيها ورقبتها كأمواج البحر، يدفعنى حنين غائب لاحتضانها، تتفهم خوفى، فتطلق رحيقها المنعش لتتفتح مسمات الرغبة المذهلة بروحى.

تقترب من فمى وتلمس قضيبى، فتغذى مشاعرى، وتلتهم جسدى منتشية وهى تصرخ: "كمان يا "منسى "دوس كمان!!"

تصطك أسناننا عازفة لحن النشوة المتجدد، لاكتشاف دفء الأحضان، أركبها وتركبنى وأنا مذهول من عذوبة امرأة، عشتُ بجوارها سنينًا طويلة دون أن يحس أحدانا بنبض الآخر، أو يكتشف طعم لعابه الصافى .

انهمرت السماء بكل المطر، ذابت جدران جسورنا، أعادت أحضانها الملتهبة الطعم الحقيقى لحياتى، تجاوزت هموم الدنيا، وانطلقتُ لمجهول يمتلئ باللذة، آملاً فى الخلاص، تركتنى مبتلاً على الأرضية وسط الحلل، وغادرت وعيونها المشتاقة تناديني.

أتذكر كلمات قاموس أبى وهو يوصى بتغيير حياتنا، قائلاً: "أفضل طريقة لإجبار أجسادنا على القيام بأدوارها هى العفوية، المطلوب فقط نوع من الحيلة، بحيث يقوم عقلك بإصدار الأمر غير المتوقع فى لحظة لا يمكن لجسدك أن يرفضها، بمعنى التحايل على أعضائك لتقوم بالفعل الذى ترفضه، كأن تلقى كلبًا مصابًا فى قدميه بالماء، ولمقاومة الموت فسوف تقوم الساق المصابة بعملها رغمًا عن إرادة الكلب، فإرادة الحياة تفوق أية إرادة أخرى".

دخلت الحمام منتشيًا لأغتسل، نظرت لنفسى، تحسست أعضائى، كأننى أُولد من جديد، وقف "منير"على باب الحمام، قائلاً بسخرية وعيونه تنضح بالصرامة: "يا فاشل!!"

قهقه عن آخره مستكملاً: "دفء المشاعر، لا يوجد بفرج جارتك يا بارد "، أشار إلى أعماقى قائلاً: "الإحساس يكمن هنا "، لم أهتم بملاحظاته، لأننى بالفعل أحسست بالنشوة، شىء

ما غمرني فجأة وأنا أقذف في فرجها، وهي تصرخ وتئن وتقول: "دوس كمان "، نظر باستياء إلى عيوني، ورحل في صمت.

لا تهمني نصائحه الآن، فالسعادة هي الحقيقة الخالدة التي نتفاني من أجل العيش بنعيمها، كان أبي يسجل كل نظرة لجيرانه، ويفرد خيوط مشاعرهم أمامهم ليدلهم على طرق البهجة، حين يأتي إليه الباعة أو الجيران ويسألوه عن الربط والحل، يُذكِّرهم بالتفاصيل التي أبهجتهم ودفعتهم لاختياراتهم، فيعودون عن طريق الكرة، راضين بمصيرهم.

قبل موته احتضن قاموسه قائلاً بوجهي: "إذا فهمت أسراره، فستعيش حرًا للأبد، حافظ عليه فهو الثروة الباقية من عبق الأجداد "، رغم أنني لم أفهم مغزى وصاياه، لكني أحس بنظرات أهل السوق تخترق روحي لأصنع الأحجبة التي تقوى عزيمتهم، وتخفف آلام العظام، وتشفي مصارين البطن المهروسة.

يوم زاره "مفجوع"صاحب المطعم وصدره كاد ينفجر، مدده أبي بحجرته على الأرض، وأخلعه ملابسه، داس على فقرات ظهره بقماشة سحرية، أنهت كل الآلام، حاول "مفجوع"أن يترك وجبة جاهزة من طعامه بمطبخنا، ضحك أبي وأعطاه كيس الطعام ليذهب به إلى زوجته.

لم يصدق الرجل أنه شُفي من مرض الخنقة العظامية، فقرر التضحية بالوجبة، تركها للكلاب والقطط بالشارع، لكن منظر الأطفال الهاجمين على كيس الطعام جعل قلبه القاسي يشفق يأسًا لحالهم.

فوجيء "بمطيور "يسحب أحدهم ويدخل به لدورة مياه الجامع، استغرب حاله، اقترب من شباك الدورة ليشاهد الجربان راكبًا على الطفل المنتشي.

سمعه ينادي عليه كزوجته، قائلاً: "اتعدلي شوية يا "مهجورة"، الحسيني يا بت، آه يا فاجرة، وحين ركبه الطفل كان يتحدث "كمهجورة"قائلاً للطفل:"دخله قوي يا "مطيور "، يا راجل عيب، يا وسخ، والنبي لاكلك".

عاد "مفجوع"لأبي يحكي له عن "مطيور"ودورات المياه، نهره أبي، لأنه لم يذهب بالطعام لزوجته التي تنتظر أن تأكل من يديه لمرة واحدة فقط قبل موتها.

حُرم مفجوع من خلفة الأبناء، فأعطى دكانه كل الوقت، حرَّم نفسه على زوجته، وحَرمها تذوق طعام الدكان، كأنه يعاقبها على عقمه؛ فالجميع يعلم أن زوجته أنجبت من سعد العربجي قبل طلاقها طفلاً مات محروقًا وسط حجرته الوحيدة، طلقها لأنها لم تسمع نصيحته، بترك الولد ينام بحضنه على عربته الكارو التي تحميها الملائكة.

بكى "مفجوع" لحديث أبي المعاتب، قائلاً: "كان نفسي في حتة عيل يا سيدنا، أشم رائحته وأطمئن على امتداد عائلتي في الحياة، فأنا وحيد من أب وحيد وأم وحيدة فمن سيرث

الدكان بعدى؟ " تمتم أبى فى قلبه بتعاويذ الحب، مسح على وجهه وعيونه، ظل أكثر من ساعتين، يحدثه عن مجد الربة الخالدة فى ملكوتها العالى .

فى هذا اليوم عاد "مفجوع" لـ"مرزوقة" وعاشرها كامرأة كريمة، وعدها بإحضار وجبة جاهزة من الدكان كعشاء ليوم الغد، أكد على وعده صباحًا حين بكى على صدرها قائلاً:"متطبخيش النهاردة يا ولية ".

بعد موت أبي امتلأت أعماق الحى بالاستحواذ، تحول أهله إلى وحوش، لم يعد بحياتهم إلا الخديعة، فقدوا بأسى الحب ، وكلما نظروا فى عيونى أحس بأملهم المتزايد لأسلك الطريق القويم، وأزرع فى أجسادهم الخير، الآن لا يهمنى كل ذلك، ولا حتى نصائح كائنى المنير، لأننى تذوقت لعاب امرأة مشتاقة لقضيبى الملتهب المدهوش من براءة ودفء فرجها، نعم ستعود "مهجورة"ساعة صلاة الجمعة لتأخذ مجمع السكر وتمدنى بطعم اللذة الخلاب.

أنتظرها بشغف غير عابئ "بمنير "الذى لا يفهم قيمة القذف فى حياتنا، ستأخذنى الجارة للحديقة بعد معاشرتى، لأستمتع برحيق النهر متدفئًا بشاطىء الغرام، ستطعمنى الأطباق الشهية التى عجنتها بقلبها المتدفق بالنشوة، أتذكر كلمات والدى وهو يقول: "علينا فقط أن نغذى أرواحنا بالحب "، طبعًا إهمال احتياجات الجسد جريمة كبرى، لأن نافخ الروح الشافى هو خالق الأجساد القائل على لسان المصطفى: "إن لبدنك عليك حق ".

العويل يملأ الشارع، أجرى ناحية البلكونة، طوابير من النساء المتشحات بالسواد يسرن خلف طوابير الرجال متجهمى الوجوه، يسبقهم بعض الشباب يرفعون خشبة الميتين ويرددون بصوت جهورى:"وحدوه!! " ترد النساء بحزن دفين، أسمع نحيبهن على الفقيد: "رحت فين يا خويا؟!" "أجيبك منين يا سبعى؟!" "كان بدرى عليك يا ضناى "، ملأت نساء الحى والأطفال شبابيك البيوت يتفرجن على مشهد الرحيل، يلوحن بأيديهن مبتسمين، كأنهن يودعن الفقيد.

"**كفر**"

حين صرخت "مهجورة"وهى تركب صاحبى، قائلة: " أنت رجل حقيقى "، انتشى ونسى دوره فى فهم خبايا الروح، فَقَدَ تاج المحبة وخسر نعيم الجنة، سخر من ضيائى، رغم أعماقه الطيبة، تمادى فى حلمه بأمتلاك منزل وعروسة وجارة طيبة، كأن الزواج وإنجاب الأطفال أهم من خلود روحه وصفائها.

تجاهل وصايا القديرة بقتل الرغبات والطمع والأذى واحتياجات الأجساد الفانية، متغافلاً رؤية عيون الأبرار المهرولة لرحاب جنتها الواسعة لتذوق طعم الخير، والتمتع بسلام قلب الحوريات التى تضخ السعادة.

ليس صاحبى وحده من يغزى نزوات الجسد، فقد البشر منبع الحب اللامتناهى بأعماقهم، كافرين بخلود الأم التى دفَّأت أرواحهم برحيق جنتها، اندفعوا فى الحياة ممتلئين بالأحزان، ناكرين دور الأخيار الذين مدوا الدنيا بالأمل، صدقوا حكايات مشعوذين ظهروا فى لحظات نسيان الحب، وتمكنوا من بث الخوف والخنوع، مصدقين كتبهم التى ادعوا أنها نزلت بمباركة إلهٍ منتقمٍ جبار.

نسوا صوت الحقيقة، وآمنوا بنبوءة أوصياء مُجدفين، قسموا أنفسهم لأتباع وملل وأجناس، ميزوا بين العامرين بالسلام والخير الأبدى والكافرين بخلود ربة الكون، سلبوا أموال ونساء وأطفال بعضهم، معتقدين إخلاصهم للرازق، تمنوا الموت فى الحروب، آملين دخول جنة الخلد كشهداء!

صدقوا أنفسهم بأنهم الكائنات المنزهة المتفردة، تخيلوا قدرتهم الواهية بإدارة الكون بدلاً من الوهاب، شيدوا قصورًا وممالك وساحات لنشر رسالتهم، خاضوا حروبًا، وأهدروا دماء ، بسبب الكره الذى غذوا به نفوسهم، نعم صدقوا حكايات هؤلاء المجدفين الذين أجبروا البشر على الإيمان بنبوءتهم، بدافع الحصول على الطعام أو الخوف.

فى لحظات كثيرة ضج الخالق من عباده وكاد حرق الكون، لولا ظهور الام بهالتها المهيبة وسلامها المتدفق بالحب، أعادته لرشده فترك الشيطان يسلب البشر أعماقهم الطيبة.

تخيل أحدهم فى يوم أسود أن حكمه سيدوم للأبد، فدخل مدينة مسالمة وأحرق ملايين الكتب التى تزخر بها مكاتبها، قطع رؤوس الأبرار بحواريها وألقى بجثثهم فى النهر، حطم تماثيل العشق والمحبة، وبعد زوال ملكه انهارت أسوار مدينته وقويت شوكة المهزومين، فحرقوا كل قصوره ورجاله والأهالى المسالمين، بدعوى إيمانهم برسالة نبى جديد ظهر فى الوديان.

حرقوا بخسة سجل الذكريات الذى حوى هوية البشر، دهسوا الحياة التى صنعها الأبرار، تجاهلوا نور أرواحهم، ورفضوا دخول جنة الريحان، وتشمم زهورها، والانتشاء بموسيقى أوراق الشجر، لامتلاء قلوبهم بالحجارة.

سحقوا بجهلهم مدنًا وحياة بأكملها بعد أن صنعوا بفعل السحرة قنبلةً بحجم كف اليد، يمكنها أن تنشطر وتنشطر، لتخترق وتهدم وتحرق كل ما يقابلها على مدى آلاف الأميال.

آلاف الرسومات والصور تم حرقها، ملايين الأرواح تم سحقها وتعذيبها، كى تلقى مصيرها المحتوم، ورغم ذلك لم يعُد الإنسان إلى صوابه، اعتقد أنه ملك مستقبله ومصيره، فتجاوز الناموس وخرق روح الحياة.

يصرخون بكل العصور، قائلين: "نحن من جنس كذا السامى وعائلة كذا الأصيلة"، يتباهون بنحافة أجسادهم وملمس خدودهم، يقفون على ضفاف محيط كبير خلف تمثال امرأة بعيون باكية، تحمل شعلة بيدها وترفعها للسماء، كأنها تصرخ من الألم، مفتخرين بقوتهم داعين بخلود الشيطان، قائلين: "نشكرك يارب لأنك خلقتنا رجالاً ويمكننا التحكم فى أسرار كونك المهيب !"

حكايات عجيبة يرددها البشر فى الأزمان المختلفة عن ميلاد طفل معجزة دون أب، وتمكنه رغم يتمه من التبشير برسالة مسروقة من جدران المعابد، آمن بنبوءته الملايين، رغم اغتياله على أيادى خصومه فى المراعى، صدق أتباعه حكمته القائلة بأن تلقى أكف اليد من الأعداء على الوجهين، وترك زوجاتهم ليغتصبهن الجيران هو الأمل والخلاص.

آخرون زعموا أن منقذهم شق البحر بعصاه، ليعبر بقومه إلى بر السلامة، افتخروا بقوته التى فلقت الحجر، وفتكت بجسد أحد أتباعه، متباهين بفحولته وطوله الذى زاد على مائة شبر، وقوة عظام صدره التى تصدت للسهام الحارقة ببسالة!

الملايين فى البلاد القاحلة، يعتقدون أن فارسهم صعد للسماء على بساط الريح، ليقابل الملك الوارث فى السماء العاشرة، مستمتعًا بتحسس نهود حوريات الجنة، مرعوبًا من نار الجحيم، آخرون حكوا برهبة عن بطن الحوت الذى آوى رجلاً مسالمًا، غضب القوى من ضعفه ورفضه التبشير برسالة التوحيد، فاستحق السجن ببطن الحوت أيامًا أو شهورًا، لا يهم، مادام هناك بشر يعتقدون بأن قائدهم أنقذه المميت من الظلام، فسلط الفلك لتغرق الأرض بمن عليها، ونجا رسول الطوفان الذى مجد شموخ الحى وصلى لعظمته رغم إغراقه لقومه، بالطبع أكد أتباعه أن السفينة التى أنقذته حملت من كل المخلوقات زوجًا وزوجة ليستمر إنتاج الحياة!

آمن آخرون بأن مُخلِّصيهم مارسوا الشذوذ مع قومهم، فسلط عليهم القهار أنفسهم ليحترقوا بنار الجحيم، عاشروا أمهاتهم وبناتهم بشبق عجيب، ورغم ذلك لازال أنصار هؤلاء الفرسان يبشرون بدينهم.

نعم مازال هناك بشر يعيشون بيننا، يصدقون حكاية الهدهد والملكة التى نقل الطائر عرشها فى لمح البصر بجوار حكيم الزمان لتنعم ببركاته ورضاه، والشىء اللافت أن الحكيم ظل

جالسًا على عرشه حتى أكله الدود، ونهش النمل عصاته التى كان يتعكز عليها، كأن رائحة جسده المتعفنة لم يشعر بها أهل بيته ومريدوه.

قصص كثيرة يرددها البشر عن أهل الكهف وبرج الصبر وألواح الكره، ومعجزات البطة وصراخ الدياكة وزهد الثعالب ونواح أم قويق، حكايات مسلية يؤلفها الناس ويرددوها كأنها حقيقة، ملايين القصص عن الأبطال الخارقين يؤمن بها البشر، غير عابئين برسالة القديرة ، حكايات وحكايات يعرفها البشر عن إلهٍ شبيه بهم، يرغب كل يوم أن يختال بقوته على عباده الضعفاء فيوقعهم فى الشر، فقط ليختبر إيمانهم ويتباهى بقوته وعلمه باعتباره خالق الملكوت!

الشىء المزرى أن أغلب البشر يسخرون من الدواب، لانحطاط روحها، مصدقين كتب المجدفين التى ميزت بين الإنسان وباقى المخلوقات، كأن الحيوانات خلقت من روح آلهة أخرى أقل درجة وأكثر خسة، الوحيدة التى تعرف السر هى الأم القديرة التى لولا وجودها لعاشت الدنيا فى الظلام الأزلى، نعم آمن جميع الأرباب فى الأزمنة المختلفة بروعتها وبراعتها، فاستمدوا من نورها شعاع الحب والخير والسلام.

يؤمن الملايين حتى اليوم بهذه القصص، وكأن المنعم شيطان رجيم تبتهج روحه بالشر، فيجبرهم على الإيمان بقوته وطريقه، باعتباره الكنز المدفون الذى يجب أن يسبح الجميع جبرًا بحمده.

صدقوا الحكايات التى ألفها مشعوذون ظهروا بينهم، وأنكروا أعماقهم التى تمدهم بالحقيقة، كذبوا أرواحهم التى تخترق بأحلامهم الزمان والمكان لتدفئ قلوبهم بالحب، حرموا أفئدتهم الجريحة من السلام بتجاهلهم نور كائناتهم المنيرة التى تمدهم بالسعادة وصارعوا بعضهم، بدافع تغذية الشر السابح فى عروقهم.

سخروا من العارفين بخبايا النفوس المؤمنين بقدرتهم فى تجاوز الأذى، وآلهوا مفجوعين، ودونوا الخرافات بكتب لازالت مقدسة ومرفوعة الي مراتب تفوق مرتبة القديرة.

آه من هؤلاء الناكرين للجميل! بتصوراتهم الواهية حول قدرة عقولهم، خسروا أنفسهم وألقوا بكنوزهم فى غياهب الظلام، ينظر هؤلاء إلينا وهم يتحسسون قضبانهم، ويقولون بعد أن يحسوا بقسوة الصخور فى قلوبهم : "يا كسالى! قوموا وتحاربوا، واسفكوا الدماء، كى يتمكن المتجبر الظالم من تشمم رائحة دمائنا، فيفخر بمجازرنا".

يوصى قادتهم بالتمادى فى الشر، قائلين: "تحاربوا لنستمتع دون خلق الله بكل نعم الأرض والسموات "، ويدَّعوا بعد ذلك أن هذه الحكم جاءت من عند الرزاق المتباهى!

يفهمون حكمته بشكل معكوس فيغتالوا الأمل، ويتعامون عن رؤية بصيرتهم، مدفوعين للشر كمصير أبدى، غير مدركين أنهم يدعمون طريق الأرباب الخونة والشياطين.

يكفرون بدين الأم ، مصدر كل الخير والسعادة ويؤمنون بآلهة وأدعياء، افتخروا بسفك دماء العين بالعين، وبتر يد الجائع سارق خبز جاره.

الغريب أنك حين تذكر لهؤلاء حكاية الربة ، يسخرون منك ويتهمونك بالكفر والجنون، فقدت قلوبهم المحبة والإحساس بغاية الحياة، نعم ستزيل الحفيظة كل الحزن والمآسى من قلوبهم، يوم عودتنا لجنتها، ستقيم احتفالاً مهيبًا يحضره كل الأبرار ليشهدوا على انتصار الخير فى المعركة الأخيرة.

تنزوى عيون صديقتى "بهية"بعيدًا عن روحى، كادت تنسى نفسها بواعز من "الجنون الزرق "، فسارت لمناطق موحشة داخل أغوار "مهجورة"، صرختُ بأعلى صوتى على الربة ليدخل الحب من جديد بروح الجارة وتعيد الأمان بقلب بهيتى.

صارعت القديرة الغيلان الذين تمكنوا من روح مهجتى، وأطلقت نشيد الحب، وطهرت بهالتها البريئة النفوس، فانزوى الشر مرعوبًا، تاركًا "بهية بأعماق الجارة، سعدت "مهجورة"بحضورها، فنزلت السوق لتشترى الخضر والألبان، أبدعت فى إعداد أجمل وجبة طعام تذوقها صاحبى وزوجها دون أن يدروا أن خلطة الحب التى مدتهما بها عيون الجارة كانت من قلب القديرة.

مرة أخرى يقف ملك الشر على باب الجارة "مهجورة" منتظرًا تراجع قدميها خطوة واحدة لينقض على أعماقها بالسواد، طمأنتنى "بهية"ليقظة روح أمنا ، قائلة :"لا تخف يا "منير"فالقديرة لا يمكن أن تنسانا ".

أبكانى صوتها فقلت :"لكنك نسيتينى يا "بهية"، ردت بحياء: "أنت بالقلب يا ""منير"، شاهدت قرين "حمدى" يتقدمها لشقة "مهجورة"، استأذنتنى حبيبتى مستأنسة بالضوء الباهر لقرين السائق.

احتضنته الجارة بحب، اندمج ضياؤه مع نورها، دخلا الحجرة، أغلقا على نفسيهما الباب، سمعت أصواتهما المغردة، والجارة تدعك جسد قريبها بروح الفل، احتضنها وعاشرها، سعدت بلقائه، أراقب همسهما باحثًا عن بهيتى التى غابت مع قرين السائق فى جنة الملذات.

عدت مرة أخرى لأعماق صاحبى محاولاً دفعه للكفر بنبوءات المشعوذين، والإيمان بالطريق القويم، أدفعه لينكر بإيمان حكايات حق البدن وشجرة المعصية وموازين الحساب والعقاب التى أدت لنشر الخوف وسط العالمين، يبتعد عن نورى، رافضاً ملء أعماقه بالسلام.

"مخروقة"

نشرت ملابسى على كراسى الأنتريه، متلاشيًا عيون النساء المدهوشة من خلف شيشان البلكونات من رجل عاش وحيدًا دون أن يمسه العته .

امتلأت روحى بالنشوة، فكنست الصالة ونظفت أرضية الحمام، وغسلت الأطباق، مسحت التراب عن سقف المكتب، ففوجئت بالقاموس يدعونى لفتحه، قهقه "منير"عن آخره، قائلاً فى نبرة ساخرة: "يا خواف!!"

تظاهرت بالشجاعة وحملته بكلتا يدىَّ، متذكرًا قول والدى لأحد جيرانه لحثه على العمل: "الطريقة الوحيدة لفعل الشىء المستحيل هو فعله، السر يكمن فى إرادتك وقوة أعماقك، حينما ترغب فى الفعل، تحرك نحو هدفك، ستجد تحقيقه أسهل كثيرًا مما تصورت ".

كتب أبى عل اول صفحة بالقاموس: "النور "، وضع قوسًا على اسم الحى ، الشىء اللافت من خطوطه الكثيرة هو تقسيمه لحياة أهل السوق لمراحل لا تنتهى.

سرد حكاية امرأة تقيم منذ ميلادها بجوار شجرة الصفصاف، صورها عارية الرأس بين السطور ، تسير وسط الجميع مفتونة العينين والصدر، كأنها تؤاخى الطبيعة.

كتب فى نهاية حكايتها: "فى يوم غير عادى، مزقت الهرمونات ضلوع "نعمة"وغددها، تضخمت عظامها، فزاد طولها عشرين سنتيمترًا فى ساعة واحدة، وظهر على بطنها الشعر الكثيف ، تحولتْ إلى جبل صلب، تجاوزتْ كل شىء وسارت مفتونة بقوتها الغريبة ، لدرجة أن أصبعًا واحدًا من يديها كان كافيًا لرفع سيارة من على وجه الأرض عدة أمتار، وفى اليوم الأخير شقت ملابسها حتى الذيل، ورحلتْ فى صمت دون أن يراها أحد ".

قمت مهرولاً على أثر الدق المتواصل على الباب، متفاجئًا بالشيخ "سعودى"صاحب المنزل يطلب الإيجار، أخرجت من جيب بنطلونى النقود ووضعتها فى يديه، استلم المبلغ وناوله إلى يد زوجته ، سحبت روحى هالة المرأة الصغيرة، رغم خمارها لكن عيونها المفتوحة بشبق خلف الشيخ، تدفعنى لزحزحة جسده والسلام عليها بيدى، ردت فى حياء فاجر:"أهلاً وسهلاً يا أستاذ!!" فقال الشيخ بصرامة:"الشهر الجاى يمكن أسافر، سلم الإيجار لمراتى "مخروقة ""، نظرت لنهودها العطشانة وقلت كالنسيم: "حاضر يا عم الشيخ، أنت و "مخروقة" واحد".

هرب العجوز من عيونى، وصعد سلالم المنزل متخفيًا من نظراتى التى أكلت جسد زوجته ، أغلقت الباب وعدت للقاموس، فتحت منتصفه، وقرأت عنوانًا جديدًا: "مفجوعين".

وصف فرع شجرة مائل أشبه بإنسان عاش كالطاووس بين أهله، سعيدًا بعمله وزوجته ولون عينيه وطريقة سيره وسط الحوارى، سرد بدقة طيبته وأدبه الجم اللذين جعلاه أمثولة الحى فى الأخلاق، كتب كأنه يرثيه: "فى يوم غير معلوم، خرج "محروس "عاريًا، يبحث عن شىء

غامض، استوقفه الجيران، غطوا عورته وألبسوه الملابس النظيفة، على حين غرة ورغم تجمعهم من حوله، جرى بعيدًا وشق هدومه ورحل، لم يتمكن أحد من اللحاق بروحه ".

ترك عدة سطور بيضاء، وكتب بعدها:"عندما ينسى الناس أنهم بشر، ويحتاجون للآخر، يعجزون عن استكمال حياتهم، لحظة أن يحسوا بألوهيتهم، وكونهم معصومين عن الخطأ، تنفجر أرواحهم، لتعلن النهاية، حين يعترفون بذنوبهم وخطاياهم ويتطهرون من الدنس سيتجاوزن مرحلة الآلام، سيفجرهم الشر القابع بداخلهم يومًا ما، ليعودوا كما خلقتهم القديرة، سيظلوا أسرى عذابهم، ماداموا مصرين على تدنيس أرواحهم، حين يقرون بإنسانيتهم ويفهمون الغاية من خلقهم، يتسامحون مع أنفسهم، فينطلقون إلى مرحلة إنسانية أرقى، وقد يصل بهم الأمر إلى السمو والعلم بالغيب، نعم يجعلنا الحب نغفر للآخرين، فيبادلوننا التسامح والعطاء ".

أغلقت القاموس ، فخرج "منير" من أعماقى، قائلاً: "كمل يا عم "منسى"، كمل عشان نعرف اخرتها اية "، قهقه ساخرًا من ضعفى، قائلاً: "ولاَّ أقولك، قوم نام أحسن لك ".

نظرت بغيظ إلى عيونه ، متمنيًا فعصه، لكنه يجرى أمامى ، ويمر من بين أقدامى، ويطير فوق رأسى ساخرًا من جنونى، قائلاً بهستريا: "كمل يا جاهل، كمل وشوف الحى رايح فين، ولاَّ أقلك يا خويا، البنت "مخروقة"مرات صاحب البيت، مستنياك فوق السطح، اطلع وشوفها عايزة إيه، صدقنى ياله متترددش ".

عدت للبلكونة متأملاً السماء والشارع المكتظ بالباعة والبشر، قطع صمتى صوت "مطيور "قائلاً بصوت عالٍ:"مهجورة" عندك يا "منسى"، استغربت سؤاله فقلت بهدوء: "معرفش"، سحب طفلاً صغيرًا فى يديه، طبطب على شعره كوليد، واستكمل: "لو شفتها قلها أنا فى الجامع".

سمعت "زخارى" يقول بسخرية وسط الشارع : "الحاج "مطيور" بيعلم العيال الحب فى بيوت العبادة!!" تجاهلت تعليقاتهم، وعدت للصالة ، ارتديت ملابسى مهرولاً لسنترالى ، متمنيًا رؤية وجوه زبائنى وهم يصرخون ، آملين عودة ذويهم أو رحيلهم، جلست على مقعدى متأملاً أصواتهم المتناثرة وهم يسألوننى: "عايز كام؟ "

يسيرون إلى الخارج، حالمين بعودة الخلان ، لا تهم رغباتهم وأحلامهم، لا تهم، فوجوههم البريئة تكفى لدفعى للتقدم والاستمرار فى الحياة.

وقف "منير "على سقف المكتب، شامتًا فى تفاؤلى، ضربت بكل قوتى على سطح المكتب محاولاً فعصه، دوى صوت الكوب الزجاجى الذى وقع على الأرض كأنه انفجار وسط السكون، هرول السائرون بالشارع متجاهلين وجودى، باحثين عنى بزوايا السنترال.

لملمت زجاج الكوب المكسور ونظرت ناحيتهم قائلاً: "محصلش حاجة يا جماعة، أخد الشر وراح "، فرحلوا وقهقه "منير "ساخرًا من نبرة صوتى ورحل هو الآخر!

داعب "سكران"القهوجى بوسط الشارع الخضرية، أسندت رأسها على الحائط، قائلة بصوت خفيض: "يا راجل يا وسخ"، ضحك القهوجى مستكملاً: "البيت فاضى يا وليه، هعدلك دماغك بس متتأخريش "، ردت الخضرية:"يا ناقص أنا أبص لك أنت، دى البصة فى عين العيال بمليون راجل "، قهقه عن آخره صارخًا:"خمسة شاى على مية بيضا للأسطى أحمد وضيوفه ".

فجأة انقطعت الكهرباء واختفى صوتهم، أشعلت شمعاتى وجذبت الباب حتى منتصفه، أخذنى اللهيب الخافت لعالم والدى، سمعت حديثه مع الملائكة والشياطين التى تملأ الفضاء، دفعنى كثيرًا لإيقاظ روحى قائلاً: "يجب أن ينحط جسدك للحضيض حتى تحس بآلام الآخرين، وقتها ستسمو روحك ليغمر النور قلبك ".

يسخر الناس أحيانًا من صمتى وخجلى، لكنهم يحترمونى معتقدين كشفى لحجاب الحقيقة وتاريخهم المسجل فى اللوح المحفوظ، لم يصدقوا أنى مختلف عن والدي، أرغب فى العيش كواحد منهم، أتمنى الزواج من فتاة تنجب أطفالى، وتذكينى برائحة طعام مطبخها، أرغب فى عمل مستقر يدر دخلاً كافيًا لاحتياجات أسرتى فى المستقبل.

عاد النور للحى، وأخذ معه كائنى المنير، آملا ألا يفجر الغضب والحيرة روحى مرة أخرى، أعتقد أن رحيله عن حياتى سيجلب الحظ إلى قلبى.

"مجروح"

يعتقد البشر أن رفضهم الاستمتاع بالحب، سيمكنهم من دخول الجنة، يقدمون سجلاً حافلاً بالمجازر والخيانة، معتقدين خداع الخالق، ينامون فى البرد عرايا سعداء بفقد خلانهم، كأن دهس النعم التى مَنَّ بها الخالق على أرواحهم هى كل المنى.

يقف قلب الام أبد الدهر بالمرصاد ليعلى من قيمة الخير، تظهر المعدن الطيب لنفوسهم، ليغيروا أقدارهم ويحسوا بدفء أروحهم، فيستمتعوا بتذوق طعم الماء، وتبتهج شرايينهم بالهواء، فيتدفق النور معالجًا جفاء أحاسيسهم الميتة.

يندهش الأرباب من تخليدهم أسطورة بطلهم المضحى بحياته، ترك أهله وركب جواده وحمل صواريخه، مخترقًا السماء العاشرة، آملاً فى رؤية قصر الفخور العالى، متمنياً ملء مشاعره بنهر الحب ورؤية سلام فؤاده.

حين حط مقترباً من نهاية الرحلة، لم يجد إلا أعماقه التى تمتلىء بالرحمة، فتذكر بحزن رحلته الخاوية، فعاود الرحلة آملاً ظهور إشارة واحدة تدله على روح قرينته ونور عيونه التى جالت بخياله فى ليلة مقمرة كطيف منير.

كافح لتخترق روحه سهام العشق، قام مرتحلاً باحثاً عن روحها بأرجاء الكون، تمنى الإحساس بملمس وجهها الرقيق، حلم أياماً كثيرة بلون عيونها ورائحة إبطيها.

عثر على جنتها فأقام بجوارها، متمنياً نظرة واحدة عطوفة منها، رفضت المعشوقة هيامه، لأنها تعلم بخبراتها قسوة الحرمان، امتنعت بثقة عن مبادلته مشاعر الرضا، مع ذلك ظل المسكين أسير قلبها الدافىء، متمنياً نظرة أمل.

أبدع كل يوم أفكارًا جديدة وشق طرقًا وَعِرة، ليصنع أحداثاً مبهرة، متجاوزاً قدرته فى شحن عواطف الآخرين بالبهجة، متخيلاً أنه يمكنه مشاركة الحاضر الغائب فى العلم بخبايا الروح، تناسى أن المعشوقة لا ينفتح قلبها إلا بأمر القديرة، لكن الحقيقة التى تغافلها الجميع، أن الرقيب المتعالى المندهش من مثابرة البطل رفض الإفصاح للمسكين عن سر معبودته ، فتمادى البطل معتقدًا أن الخالق بيديه مفاتيح الروح.

لم يحن قلب اليمامة بكلمة عطوفة، ودون أمل بالعدول عن رغبتها، ظل كل يوم يصنع ويزرع ويعمل دون كلل، ليبهر عقل الرحمن، كى يأمر بفتح قلب حوريته لمبادلة عيونه المشتاقة نظرة حنونة.

قررت الحبيبة فى النهاية بواعز من العليم، أن تطل على وجه المضحى بحياته من أجل لمسة من أطراف أصابعها، تدل على الشكر والامتنان لتفانيه وإخلاصه.

نظرتْ إلى وجهه فاحترق جسده تماماً، وظل كتمثال مصلوب داخل حديقة واسعة تطل على نهر، دلالة على سحق قلوب الأبرياء المحبين، نظرت إليه كشيطان رغم عشقه للتراب الذى تسير عليه.

بكت الأم على فقد أحاسيسه التى تغافلت عن رؤية وجهها الذى يقدم للعشاق الأمل، أقامت بجنة الريحان عزاء يستحقه بين "خلايق"السماء والأرض، أجبر الاحتفال الستار على تخليد ذاكراه، فتركه عارياً ليجمد جسده البرد القارس ويحرق روحه ذل الشماتة، تركه مصلوباً كملاك وسط حديقة كانت أمل المحتاجين، ليندهش البشر بعد ذلك من القسوة التى تقدم للمخلصين من خلانهم الأوفياء.

فى عالم الحب لا حساب ولا عقاب، لا كره أو غل أو حنق أو حسد، فقط عيون تمدنا بالرضا والسلام، تدفىء أعماقنا برحيق النشوة لنندفع بطريق العلم بالأسرار.

يكفى للمحب عندما يشعر بنور عيون محبوبته، أن يحتضن كل الكائنات ويتآلف معها كزهور الجنة فيذوب فى مسحوق الرقة،ناشرًا رحيق السعادة فى محيطه.

تعطيك الخليلة كل شىء، ولا تحتاج منك شيئًا، يكفيك فقط أن ترضى عن روحك، يكفيك تلمس نظرة عطوفة كى تنتشى، وتنتشى، وتطير فوق السماء العاشرة فى لمح البصر، لتحس بأجمل ما أبدعته ربة الكون من سعادة.

اعذرونى لنسيانى "منسى"، المشغول بقاموس والده ، وبفقد بشروده روح "مهجورة"التى ترغب فى الإحساس بالدفء، يبحث عن معنى الحنان ، وينسى التواصل مع الروح البريئة لامرأة مشتاقة لرحيق الجنة، أنكر قلبها ومشاعرها، وفكر بالنشوة العارمة التى تزيح عن جسده الكرب.

ليس صاحبى وحده هو من يرفض تذوق روح الحب، لكن الكتب التى تملأ مكاتبكم، والرسم الذى نقشه رساموكم، والموسيقى التى لحنها أبطالكم، تدل على أن البشر يدمنون طعم الألم ، نعم يتجاهلون بغباء وعمى بصيرة أعماقهم الآملة فى العطاء، كتمثال البطل المحروم من الإحساس بقلب حبيبته، والتي انتهت حياته بمأساة، خلَّدها عالم الأسرار بخجل فى حديقة مهجورة على شاطئ نهر، كأن حرق القلب هو الدليل الوحيد على الخلاص!

جلست "مهجورة" بالحديقة، تبكى على البطل الذى فقد حياته، نتيجة جهله برسالة الربة ، مدّتها "بهية"بحبال الصبر قائلة: "فقد المدد من أعماقه لجفاء قلبه"، أصبحت نفسه كالخرابة ، لم يهتم بزراعة الحب بأغوار نفسه لينتج الخير والسلام اللذين تحسهما أعماقه، تجاهل رى روحه بالسلام، وتمادى فى العمل حالمًا بروح مهجورة محرومة من الحس.

فوجئت ببكاء الجارة، يتخلله صوت "بهية"صارخة، مستكملة الحكاية: "رغم ذلك لم يكف أبناء الشيطان عن محاولاتهم لسرقة تمثاله، استعانوا بالأشرار الذين حاولوا قطع يديه ولسانه،

فجمدتهم القديرة بأماكنهم، فامتلأت الحديقة بآلاف التماثيل المصلوبة حول المسكين الذى وقف بجسده المتفحم شامخًا بحماية أم النور ".

تداخلت الصور فى رأسى وشاهدت الربة مسكونه بالصمت فامتلأ الكون من حولى بالنور، وسمعتها تقول : "حين ينال الإنسان الجاحد ولو مرة واحدة تذوق طعامى"، ينزوى عن الدنيا ويقول بأسى: "يكفينى ما أخذت "، يهرب كالفأر متخيلاً نفسه ملاكًا زاهدًا ، الصابرون الممتلئون بدفء ملائكة الخير لا يمكنهم العودة أبدًا إلى طريق الشر، ينطلقون متناسين الأخذ، آملين فى صنع أحداث طيبة، فالمهم بالنسبة لهؤلاء هو العطاء والشكر.

أحس بنفسى كالتمثال المصلوب أمام إهمال "بهية" لروحى، أناديها: "ياحبيبتي المنيرة"، تبتعد عنى متعللة بأزمة "مهجورة"، لنسيان صاحبى زهور الحديقة، وتقول بأسى: "إذا عاد الإحساس لقلب قرينك، يمكننى العيش معك أبد الدهر، دعه يرأف بحال "مهجورة"ويهدىء روعها بأحضانه ".

أعود لشوارع الحى، باحثًا عن روح صاحبى الباحث على غير هدى فى وجوه جيرانه عن شىء غامض، ينسى دوره فى التواصل مع الملأ الأعلى، ويحلم بالعيش وسط جنونهم كعاقل!

"عز"

حين أطلق الجامع القريب صفارة الفجر، جرجرت أقدامى عائدًا إلى شقتى، نمت حتى الصباح بملابسى دون أحلام أو ذكريات، تيقظت متحسسًا وجهى بأطرافى لأتأكد من وجودى، وغادرت الشقة متلصصًا كى لا أعطى لأعماقى فرصة لاستدعاء قريني "منير".

فتحت السنترال وجربت خطوط التليفون، وجلست على مقعدى منتظرًا دخول زبائنى، غمر الصمت أرجاء المكان، وفجأة سمعت صراخًا وعويلاً يبشر بمصيبة، هرولت للشارع، متفاجئًا "بتحية "الخضرية، تتوسط جمعًا غفيرًا بشعرها المنكوش، وتسب أهل السوق ليتركوها تفتح كرش "مهياص"ابن البنا، الذى طالبها بالرحيل من أمام دكانه، دون أن يتقى الله فى غربة زوجها "هوسة"، قالت بأسى: "عايز ترمينى بالشارع اللى أبوى زرعه بشجر الليمون يا ناقص، عايز تشرد ولادى، نسيت أنك عمهم يا واطى؟!"

هدها التعب فاستجابت لنساء الشارع ورجاله، وجلست بالقرب من فرشتها تحكى عن "الحاج سعد العربجى "، الذى كان يصرخ بالسوق ليوقظ النائمين، أيام كان الشارع لا يتعدى أهله بعض الرجال والنساء الذين يملؤون العين.

عادت ذاكرتى وأنا أرمقها من بعيد تنام بجوار أبيها فوق العربة الكارو وسط أخواتها الصغيرات، يمسكن العصى كل يوم ويركبن العربة ويسببن الحمار بأقذع الشتائم، يدرن فى الشوارع باحثات عن الزجاجات البلاستيكية والكراتين الفارغة لنيل الرزق من وسط أكوام القمامة.

قال "سكران"القهوجى ليخرجنى من ذاكرتى: "الخناقة اللى نصبها الحاج "سعد العربجى "مع عيلة "البنا"، مش ممكن حد ينساها لكن هنعمل ايه الدنيا مش دايمة لحد ".

بعد زواج اخواتها وموت والده وحيدًا فى حادث طريق، تاركًا الكارو والحمار مخنوقًا بقيوده فى الشجرة التى تيبست أغصانها، قررت تحية الزواج من "هوسة"، يتذكر الجميع مواجهتها لعائلة زوجها مختالة بالسنجة وهى تجرى وراءه لتجبره على القبول بالدخول عليه ، بعد أن هتك عرضها ليلاً داخل عشتها أو منزله، لا أحد يتذكر.

اليوم تقف الخضرية فخورة بإعادة الماضى من الأعماق، محسورة على مواجهة الصبية والفتيات أولاد "البنا "مرة أخرى، لمطالبتهم برحيلها من أمام محلهم الذى ترث فيه بفرض موت زوجها الغائب.

هرولت مرة أخرى عند سماع صوت "مهياص"مؤكدًا أحقيته فى الرصيف، متجاوزة الجموع، وصرخت تندد بالأُخوة والعشرة وحبل السرة المقطوع.

ذُهل الجميع من أردافها الممتلئة، وصدرها البارز النضر، سبوا "أخو زوجها "الذى أنكر جهودها فى تربية أبناء أخيه، تركهم وسار وحيدًا وهو يردد بأسى:"عوضى عليك يا رب!!"

توقف النبض بالسوق للحظات دون بيع أو شراء، حاول الجميع الاستفسار عمَّا جرى، ودفعتهم الأحداث الجديدة التى وقعت بنفس اللحظة "لأحمد عز"السائق الذى عرفه أهل الشارع بضحكته المجلجلة بنسيان "تحية"ورصيف"مهياص".

انبرى أحد المارة قائلاً:"سيارة الحى فعصت تاكسى "أحمد عز".

جُنَّ جنونه، حين سمع السائق تهديد موظفى البلدية بالمحاضر والغرامات والسجن، فسيارته التى كانت تقف كعروسة وسط الشارع مازالت مديونة بالأقساط!

اتصل الموظفون بالبلدية، حضروا ليعيدوا عقل الرجل إلى مكانه، صرخ مطالبًا بحقوقه، أخذه الموظفون خلف المقهى، محاولين تهدئته بالتهديد حينًا وبالحب والود أحايين أخرى.

رفض أوامرهم بالتغاضى عما جرى، كسر أتباعهم ضلوعه بالشماريخ، فانطلق هاربًا بعيد وأحضر سكينًا وأصر على قتلهم ، فأطلقوا رصاص بنادقهم فى بطنه.

قام من على الأرض، وذهب لسيارته المدكوكة، فتح بابها، وجلس على كرسى القيادة راغبًا دهسهم، أطلق أتباعهم المزيد من الرصاص على رأسه، فخرَّ صريعًا على عجلة القيادة والدماء تملأ وجهه وملابسه الممزقة ، فاقتربت ابنته الجميلة "أميرة" من جثته باكية على فقده.

الان اتذكر ان صفحات القاموس حوت ذكريات كثيرة عن مسيرة حياته وعمله بورش الخراطة بعد خروجه من المدرسة وحصوله علي شهادة الخدمة العسكرية "قدوة حسنة"،الان ترن كلمات أبى فى أذنى كأنى أسمعه يحكى عن قتيل الحى.

يصحو من النوم راضيًا، يغسل سيارته ويجلس على المقهى، يشرب الشاى بالحليب ثم يودع السوق وزوجته "الحاجة" وابنته "أميرة" الملوحتين بيدهما من البلكونة ليرحل باحثًا عن الرزق، يعود بالمساء يغطى سيارته، يجلس على المقهى مستأنسًا بروح الباعة، ويدخل شقته حتى الصباح.

وسط الهرج الذى ساد الشارع، طلبت من القهوجى فنجان القهوة السادة، وعدت لداخل السنترال فى صمت، هرولت "صبرة"وطالبتنى بالاتصال بابنها، دخلت الكابينة، ورفعت السماعة، حين رد ابنها من الجانب الآخر، قائلاً: "أيوه مين؟ مين معايا؟" بدأت فى سرد تفاصيل حياتها، والسؤال عن الصحة والهجر وقسوة القلب.

سألته عن موعد العودة المنتظر، بكت لمأساة الخضرية، ومقتل السائق، ومع ذلك قالت بنبرة سعيدة قبل أن يغلق السماعة بوجهها: "ازيك يا "حسن"؟ عامل إيه يا وله؟" ودون النظر فى وجهى خرجت صامتة فى اتجاه الباب، لتعاود حياتها، كأن لا شىء حدث.

وصف أبى روح "صبرة" المخلوطة بعجينة الحب والمرارة كفوارس العجم، هرب ابنها بعد ظهور رغبتها الجامحة فى معاشرة الرجال، أكد والدى أن موت زوجها الذى اختارته كشريك حياتها بعد عام من زواجهما، جعل النحس يلازمها، توسلت بعالم الأسرار ليفتح بابها للرجال، بعد أن قام فى مرات سابقة بطرد شيطان الجنس من أعماقها، لكن حيله وتعاويذه لم تحل عقدتها، فعاشت وحيدة حتى نشف فرجها، ونست رائحة الرجال،وتلاشت ذاكرة الأنوثة من أعماقها.

وقف "سكران"بطريقها مخففًا آلامها، طبطب على ظهرها بوسط الشارع، اقترب من أذنها كأنه يرقيها، فعادت البسمة لوجهها قائلة بخفة: "امشِ يا راجل يا ناقص!!"

عاد البائعون والمشترون ليملؤوا السوق، يتندرون على الجنون الذى ملأ السماء، ذهبت للمطعم لأتناول وجبتى، سألنى "مفجوع"بغرابة: "شفت اللى حصل؟" لم أرد، فاستكمل بأسى: "تأكل إيه يا أستاذ؟

امتلأ الشارع بهرج غير عادى، حرمنى زجاج المطعم المغلق من رؤية وجوه الأهالى، أسمع أصوات الصبية المتوحشين وهم يجوبون السوق، مطالبين الجميع بالرحيل.

أغلق "سكران"أبواب المقهى، طردنى "مفجوع"بعد حصوله على ثمن الوجبة، هرب فى لمح البصر لمنزله ليطمئن على زوجته "مرزوقة ".

سار "مرعى"أمام الجامع، عاريًا رافعًا سنجة طويلة بيده، ومجدفًا بالشر كأنه يتمشى على ساحل البحر، راغبًا فى منازلة الصبية اللصوص المعربدين بالأسواق، سمعته يقول وأنا أجرى مختفيًا بجوار الرصيف: "أمهم دعت عليهم، هاشرب دمهم وهاكل لحمهم ".

رغم الدم الذى ملأ الحوارى، لكن الرجل كان بأسر شياطينه الذين يمدونه بالشر، ويدفعونه بحنين أعماقه للعثور على اللصوص الذين أطلقوا الرصاص من طبنجاتهم الميرى فى وجه ابنته "محمودة"فأفقدوها الذاكرة.

حين سألها عن ما جرى، لم ترد، كرر سؤاله ضاغطًا على قلبها الرقيق، فنطقت حروفًا لم يفهم منها شيئًا، فجُنَ جنونه وقرر الانتقام .

شاهدته يواصل السير متجاوزًا دوره الممقوت فى هدى الناس، وحسرته على الفشل فى زرع الماضى بذاكرة "محمودة"، يبرطم بهدوء لعجزه عن وقف الأذى الذى لحق بوحيدته، سمعته يقول لنفسه: "دعت عليهم أمهم، ولاد المفضوحة، همص عظمهم الليلة".

مشهد الحى يذكرنى بمحاولات الاهالي قتل أبى بواعز من إمام الجامع الذى استنكر حضور مسلم قُدَّاس النصارى كل أحد، ومواظبته فى نفس الوقت على حضور صلاة الجمعة ،

ليلتها يتذكر الناس أن عصابته شربت الخمر والحشيش مع "مرعى "، واتفقوا بمنزله على حرق المكتبة وإقامة حد الردة بالسوق على والدى.

لكن "مفجوع" و"صبرة الداية" و"أحمد عز" قطعو عليهم الطريق، قبل وصولهم لباب المكتبة بخطوة واحدة، خرج أبى للشارع والدموع تملأ عينيه، ساد السكون الدنيا وهو ينظر فى عيونهم نظرات طويلة، فخروا ساجدين، فقال احد الأهالى: "سلط عليهم العذراء لتفتح قلوبهم ويعترفوا بالحقيقة "، فأكدوا العصابةعلى الشر الكامن بقلب إمام الجامع، وظلوا أسرى روح أبى من يومها، يزورونه فى كل الأوقات، ليأخذوا رأيه فى كل كبيرة وصغيرة.

مات "سعد"العربجى فى حادث طريق بعد الحادثة بيومين، وأصيب "مهياص" بالمرض الخبيث، فحرم من العمل، طلق "سكران" زوجته أم عياله، وتزوج بامرأة داعرة، أجبرت أولاده على العمل معها فى بيت السر.

حاول أبى مداواتهم وإرجاعهم لطريق الخير، لكن الوقت ليس ملكًا لأحد، ذهب الجميع بإرادته لمصيره، الحوارى تمتلىء اليوم بنفس الرائحة، و"مرعى" الزاهد يمسك سنجته ويلف الخرابات، باحثًا عن أثر الصبية الذين أفقدوا ابنته الوحيدة السمع والذاكرة.

انطلق "منير" من أعماقى، ساحبًا يدى ليخرجنى من السوق، قال بصوت هادئ ليطمئننى: "لا تخف يا "منسى، لا تخف يا حبيبى".

شىء رائع أن يكون لى قرين يتحسس خوفى، ويتعاطف مع أحزانى، ويقدم روحه فداء لحياتى، أتحسس ببراءة أعماقى التى تدفعنى للسير وراءه.

أتحول بعيونى للسماء أتفاجأ بهلال منير يقف بقلبه أهل السوق، أرى نصف ملامحهم بوضوح، لكنى لا أحس بباقى أجسادهم، هم بالفعل أهل الحى ولكنهم مقسومون لنصفين، يختفى نصفهم الآخر بالعتمة المحيطة بالهلال.

أشعر كأن المشكلة تكمن بعقلى لطمسه جزءًا من وجودهم، كأن نصف روحى غارقة هى الأخرى فى العتمة، قلت لنفسى: "لكن أهل السوق طيبون ودودون، فلماذا أفشل فى رؤية أجسادهم كاملة؟ " أترجل خلف كائنى، وأنا مشغول بالعثور عن نصف أجساد المارة المخفى.

أنظر مرة أخرى للهلال حائرًا فى العتمة التى تحسها عينى ويرفضها عقلى، الجنون يفتك بروحى لوقوف أهل الحى فى مكان معتم بقلب الهلال المضىء ".

اختفى شق القمر فجأة، واختفى أهل السوق ، فسألت نفسى والحيرة تملأ قلبى: "كيف يمكنك تحديد هوية أشخاص لا يظهرون أمامك إلا بنصف وجه ونصف قلب ونصف روح؟ وهل يمكن لإرادة الإنسان تغيير بصيرته، وإحالة الموجودات التى كان يراها فى الماضى كاملة الأوصاف إلى بقايا وأجزاء مطموسة؟ أيمكن لروحى أن تنسى ملامح والدى الطيب وحجرات

شقتنا؟ وكيف أفقد بداخلى اليوميات التى عشناها سويًا، كأنها لم تحدث أبدًا؟ أيجوز أن يظلم نصف عقل الإنسان ليرى البشر من حوله كالقلب المشقوق المختفى نصفه فى العتمة؟

نظر "منير"لعيونى الحائرة، قائلاً: "ربما تتمكن من سحق الخير الدفين بأعماقك، فإرادة البشر لا تهدها الجبال، لكن السؤال الأهم: " أى طريق تختاره لمواصلة الرحلة؟ الذاكرة والمعرفة والماضى الكامن بروحك هم البوصلة ، إذا فقدتهم وضعك أهل الحى بخرابة المصحة، لعدم قدرتك على تمييز وجوههم ".

قهقه "منير" عن آخره، ولكزنى قائلاً بشفقة: "كفاياك فلسفة يا عم "منسى"ولاَّ أقولك يا ابن الخرفانة زى مأهل السوق بينادوك!!"

"**خير**"

بين النور والظلام جدار صلب رقيق مصنوع من البازلت والذهب والفضة المخلوطين بماء النار التى جلبها المتجبر من قاع الجحيم، ليوازن بين متعة الأجساد وسلام الروح.

حاول أنصار العتمة هتك الجدار، ليضيع الفرق بين الأخذ والعطاء، خدعوا العادل لينسى إخلاص الطيبين، فأطلق الشياطين ساعة غضب، كادوا أن يزيحوه عن عرشه، لولا تدخل الربة الطيبة التى كشفت محاولتهم، مذكرة الخلائق بتحذيره الدائم من تذوق ثمار المعصية، حينذاك صحا من غفوته ونعت الأرباب الخونة بالأشرار !

هرولوا للجحيم قبل أن تنصهر أرواحهم وتضيع هويتهم، تركهم العليم ليغرقوا ببحور الأذى، كاشفًا النقاب عن قلوبهم المملوءة بالغل ليكتبوا نهايتهم بأختيارهم.

لكن قلوب البشر لا تتعظ، فصدَّقو بأن العادل خلق الشر قاصدًا إخراج آدم وزوجته حواء من الجنة، حسد مشاعرهما المتدفقة بعد رؤيته عيونهما المنتشية وهما يعاشران بعضهما مستمتعين بشبق لم يشعلا به في حياته ،فأخترق عيونهما النشوانة ليري ظلامه الدامس ! تكرر مشهد الكره بين أبناء آدم، فحين تصارعا قابيل وهابيل، قُتل الخيِّر، ليستمتع الشرير وحده بتركة الأب! مدعومًا من الأرباب الخونة المعربدين بالكون وتغافل الخالق عن دعمه!

تمادوا فى التباهى كأنهم آلهة حمقاء لا تفهم سر خلودها، تجاهلوا نور الجليلة وتصارعوا ليُحرموا أنفسهم من السعادة، كأنه مكتوب عليهم أن يمروا بجوار الجدار الفاصل، دون أن يفكروا فى رائحة الحب، فحُرموا من الإحساس برائحة الجنة الخضراء التى خلفتها القديرة بالتوازى مع جحيم زوجها المتعالي!

صدقوا هذه الحكايات عن خالق الكون الذى لا يغفل أو ينام، وينكرون الحب النابض بأعماقهم، مصرين على الكفر بأنفسهم التى تمد أرواحهم بالسلام.

نكروا الأمل الذى يحتاج لإرادتهم ليصنع المعجزات التى تغير حياتهم، وصدقو خلق حواء من ضلع آدم الأعوج، ومقتل الأخ القوى لأخيه الضعيف ليتناسل ويساعد المدبر فى إدارة الكون الفسيح!

دهسوا أعماقهم بسخرية كافرين برسالة القديرة، وصدقوا حكاية الخالق المتباهى بقوته، وأنشغلو بطرقه الساخرة لتقييم أعمالهم ووضعها على كفتى ميزان بعد انتهاء رحلتهم التى لم يشاركوا فى اختيارها، فيقفوا خانعين صامتين انتظارًا لنتيجة الميزان، وحين "تطب "كفة الخير، ينالوا رضا الوكيل ويدخلوا جنته وينَعِموا ببحور الحليب وفروج النساء ورحيق العسل!

يرددون بإيمان بأن سر عظمتة تظهر حين تتوازن أعمالهم، ليقينه بأنهم يفعلون الشر رغم امتلاء أعماقهم بالحب، كأن روحهم المقسومة قدر ومكتوب على جبينهم!

انتظروا دون حياء إعلان الميزان لحقيقتهم، كأن العليم جاهل بتاريخهم ويحتاج لمعيار يكشف حياده، يأملون صراخه على ملك الموازين أمام الخلق أجمعين، قائلاً: "يا وزان! ماذا ربح الإنسان خلال رحلته ؟" فيرد الملاك خانعاً: "ربح الشقاء والبؤس والذل والمكيدة والشر والحزن يا مولانا "، فيبكى المصور قائلاً: "ضع فى كفة الخير عشرة كيلوات أخرى من عندى، ليدخل أجمل مخلوقاتى الجنة ويستمتع بفروج الحوريات النضرة، والنوم بحدائق المانجو والتفاح!"

يصرخ الأشرار بصوت واحد: "يا بارئ! كيف يمكن التفريق بين عبيدك؟ فيغضب المتكبر، وتبكى الملائكة لغياب الرحمة والعدل عن بصيرته، يضحك "الجنون الزرق"ساخرين من عطب ميزانه الحساس، فيصرخ مرة أخرى على ملك الجنة الأمين على المفاتيح والأسوار وحامى قصره العالى، قائلاً: "يا قبضاى أدخلهم جميعاً الجنة، فقلبى لم يعرف البغض أبدًا، وهم عبادى الجاهلون بمصيرهم، فقط قاموا بأدوارهم المرسومة على اللوح المحفوظ الذى سجلته ربتنا القديرة، صنعوا الأحداث التى أعرفها مقدماً، أدوا أدوارهم كالممثلين على خشبة المسرح، قاموا بتمثيلها بنفس البكارة والبراعة لأنهم لا يعرفون نهاية الرواية ".

يتجاهل هؤلاء دور حواء فى وقف الصراع بين أبنائها، يتناسون رائحة طعام الأم المخلوط بالمعصية على غير إرادة أعماقها، تصورت مع آدم أن روح الشر تظهر المعدن الطيب لأبنائهما، اجتمعوا حول مائدتها، وأكلوا من عشائها.

ورغم اتفاقهم على تقاسم تركة آدم الحى بالعدل، لكن الابن الشرير استمرأ سموم طعام الأم المتدفق بأعماقه، فأخرج ساطوره وقطع رقبة أخيه قبل مغادرة منزل الأب، صرخت حواء مفجوعة من قتل ابنها قائلة:"ولدى، نور عينى "، مات آدم حزنًا على فقيده، فورث الشر الدنيا وما عليها.

لم تقف الأم الرحيمة مكتوفة الأيدى ، استدعت الملائكة ونفخت بأرواحهم الحب والسلام، ليدلوا البشر على طرق النجاة، ويقطعو الطريق على الشياطين والنماردة، ويلهموا حواء بالحب النابض بأعماقها، فتذكرت المكلومة ابنها الميت،وأقامت سرادقًا مهيبًا، اعترف فيه الأخ الشرير بجريمته.

جمعت الفتيات البراري من الغابات ، وشقت الترع وأيقظت باطن الأرض ، وكتبت على باب الحديقة التى زرعتها مع أبناء الفقيد اسم ابنها المظلوم "خير"، نكاية فى الشر وتخليدًا لذكراه، فعادت روح أمنا الجليلة من جديد فى أعماقنا ليزرع البشر السعادة ويحصدون السلام، فتخلصوا من الحقد والعذاب الذى لاقوه خلال رحلتهم القصيرة على الأرض!

أرجوكم تجاهلوا حكايات أهل الحى عن يوم الحشر وأبناء آدم وحواء وعطف الوهاب على جنس البشر ، لأنه أسمى من أن يساوى رأسه برأس الإنسان، ولأنه سيرضخ مثلنا فى ساحة

النهاية لحكمة ربة الكون البهية وسماحة وجهها الودود لتغفر للجميع وتسامحهم، فيعودوا أبرياء أطهارًا مستحقين لنعيمها!

بواعز من ربتنا الطيبة أجوب الشوارع بحثًا عن "بهية"و"مهجورة" لأحميهما من غدر الشيطان، الباعة يملؤون الأزقة المظلمة، ويرفعون السواطير فى وجوه بعضهم للقتال، أشاهد الجربان يمسك شعلة النار متقدمًا الجميع نحو الحديقة، يتسابقون مهرولين لحرق الباقى من الأشجار، يسكبون الجاز على الحشائش فخورين بقوتهم، بعد أن حولوها لحطام، تحاربوا لاقتسام أراضيها المحروقة، رصوا الطوب ودقوا الصاج فوق الحشائش الخضراء، أضحت سجونًا صغيرة، اختبؤوا وراءها بعد أن ملؤوها بالآلات والضجيج.

دفعنى اختفاء محبوبتى للجنون، أصرخ فى البرية لتغيثنى ربة الحب، أتحسس نورها الخلاب يملأ أعماقى.

ظهرت الجارة بوجهها المملوء بالطيبة، فاطمأننت على "بهية"، داعبت روحها المنتشية، نظرت إلىَّ بغضب كأنها تحملنى هجر ونسيان "منسى" لفرج الجارة، فصرخت "مهجورة" قائلة: "حرقوا الحديقة"، رد صاحبى "منسي " بأسى: "لن نتشمم مرة أخرى عبير أشجار الصفصاف يوم الأجازة".

أحس بدفء بهيتى يقترب من روحى، لامست أصابع "مهجورة"وجه "منسى "، فجرى النور بأعماقى مخترقًا قلب حبيبتى، احتضنتنى باكية قائلة:"لولا حيرة صاحبك لعشت معك العمر كله يامنير ".

الدموع المترقرقة على خدودها، دفعت "منسى"لاحتضان جارته قائلاً:"لا يهم يا "مهجورة"لا يهم، فمازال فى العمر بقية، بكت الجارة بأسى عائدة لشقتها وحيدة، نظرت "بهية"بعيونى، وأغلقت باب الشقة فى وجه فاقد الإحساس.

تمادى صاحبى ونسى دوره، تخيل أنه امتلك مصيره، فحرم من بصيرته ليظل محبوسًا داخل الظلام، يشق الهدوم ويصرخ لينجده العالمون بالخبايا.

مع ذلك أعتبر تلك اللحظة أسعد أوقاتى، لأننى أسير بصحبة صاحبي، وأحرص على تعليمه طرق السعادة حتى لا يهرب منى.

أقترب من روحه وأدخل أعماقه أكثر وأكثر، أعيش بجوارحه كأننا شخص واحد، يالها من لحظة رائعة! فالانسجام فى عالم البشر يدخلك لنعيم الجنة لتسمو روحك فوق الجميع.

"خرابة"

سحبنى "منير "بعيدًا عن شارع السوق، دخل فى حَوارٍ موحشة بعيدة عن الحى ، جلست على مقهى مهجور تمتلكه سيدة ممتلئة، اقترب منى أحد صبيانها قائلاً: "تشرب إيه على حساب المعلمة "فجر"؟" طلبت شاى بربرى بحياء ونظرت على صدرها البارز، فبادلتنى الضحك، تهاوت أعصابى وشعرت بالرغبة تملأ أعماقى، اقتربت منى قائلة: "طلبك جاهز عندنا يا باشا "، لم أفهم مغزى كلامها، فاستكملت بخلاعة : "خلص، وتعال ورايا ".

خلف المقهى تتراص حجرات خشبية متجاورة، فُتحتْ أبوابها على ممر معتم ممتد، أدخلتنى حجرة ضيقة، قائلة: "زوبة"ملكة جمال الحى، ادفع عشرة جنيه واتمتع بجنتها "، انطلق من أعماقى وأدخل يديه بجيبى، ليخرج المبلغ ويسلمه "لفجر"، تركتنى مبتسمة بجوار السرير الذى تتمدد عليه الحورية .

قالت "زوبة"بعشق رغم أنها لم ترَ وجهى: "قرب شوية، قرب ماتخافش يا بطل "، التصقت بظهرها، فاستكملت ببراءة بعد تحسس وجهى بأطراف أصابعها: "اخلع هدومك يا بطل، اخلع وميهمكش "، ناولتها وجهى، تحسسته بنعومة كأنها تبحث عن نفسها، وضعت رحيق النشوة والرغبة بعقلى فانتشيت، لامست أطراف أصابعها رقبتى وبطنى فى رقة.

تفحصت عيونها ووجهها الممتلىء بالرضا، اقتحمت صمتى متحسسة قضيبى المنتصب كأنها تروى شبقى، على غير إرادتى قذفت بالماء الدافق فى عيونها المغلقة، نادتنى بنعومة قائلة: "المس نهودى يا "منسى "، المسها متخافش "، تسحبتْ بخفة حتى التصق قضيبى بأعلى فتحة فرجِها، فاستكملتْ بهيام: "دخله يا وله، كمان يا بطل".

أتلوى فوقها مستمتعًا بعضوى المنتشى بفتحتها الملتهبة، رفرفت فوقها كالطائر متجاوزًا وجوه أهل السوق وزبائنى، وزوبة تئن وتصرخ، دون أن تفتح عينها.

حين دقت الساعة على الحائط، قالت بهدوء: "ادفع عشرة جنيه للمعلمة وكمل "، اغتسلت فى طشت صاج قديم بصمت ، ولامستُ أنفها الشامخ ورقبتها الناعمة وشعرها العارى، فاستغربتنى، كأن من غير الطبيعى أن يدخل رجل لحجرتها فاعصًا جسدها وداهسًا عظامها ومنتشيًا بحرارة فرجها، ولا يتلمس إحساس روحها.

سألتها ببراءة:"اسمك إيه؟" قهقه الرجال والنساء الذين ملؤوا الحجرة، وقالوا بسخرية فى عيونى: "يا بنى دى "زوبة العامية!!" ارتديت ملابسى سريعًا، وخرجت من الحجرة مبهورًا من نبض قلبها، اقتربت منى "فجر"قائلة: "عرفت مكانا يا باشا، لو ليك شوق، قمر الصباح مستني ".

فوجئت بزوجة "أحمد عز" وابنته أميرة يجلسان بالمقهى، اقتربت منها قائلاً:"عايزة حاجة يا "حاجة "؟! نظرت بخلاعة فى عينى، وردت أميرة قائلة: "يمكننا أن نلهب روحك بمعاشرتى مع أمى بوقت واحد".

استكملت "الحاجة": " تنام معى بالعباية السوداء، وتلحس "أميرة"عضوك بقميص نومها الأحمر"، اقتربت "فجر" قائلة: "متستغربش، فبعد موت "أحمد عز" وخلو البيت من ضل الرجل، طلبا منى حجرة بباب ليحميا عورتيهما، وافقت بشرط أن يلبيا رغبات زبائنى، إن كان ليك شوق ادفع عشرين جنيهًا وعيش بالجنة ".

الشىء الغريب أنى شاهدت "مخروقة"زوجة الشيخ "سعودى" الجديدة تجلس على ترابيزة صغيرة بوجهها المكشوف تتناول سندوتشات الكفتة والسجق مبتهجة، جلست وسط المقهى كأنها صاحبته، تجاهلت وجودى ومعرفتى، وشخطت فى صبايا المعلمة ليأتوها بالشاى والنعناع، شخرت للباعة المتجولين المتلصصين من شبابيك الحجرات لشم رحيق الحب الدافىء.

شاهدت "أميرة "تسير مع أمها برفقة رجل عجوز ناحية الحجرات، ضحكت من قلبها متجاهلة وجودى، والرجل يعاين فرجها وأفخادها ونهودها، شاهدتهما عرايا بجانب حائط المقهى يمارسن العشق بجنون ويلتهمن جسد العجوز.

ابتعدت عن جمعهم ، وسرت كثيرًا بالحوارى وجلست على مقهى بعيد، طلبت فنجان قهوة سادة، نظر إلىَّ شخص غريب، قائلاً فى وجهى بحنية: "تقيلة عليك من غير سكر"، نظرت إليه فى صمت، فاستكمل حديثة قائلاً: "كل ما أروح عند سور مستشفى المجانين يبقى نفسى أخش وأرتاح من الهم، العيال مصاريفها كتيرة، والمرأة عمرها ما حست بى، دايمًا تقول لى: "الباب يفوت جمل، ياريت تغور ومترجعش تانى!!"

لو معايا فلوس كنت اتجوزت تانى، مش غرضى النسوان، لكن نفسى حد يسأل عنى، يستنانى لما أرجع، ويقولى ساعة الصبحية: "ربنا يفتحها فى وشك يا خويا ".

نظر الغريب إلىَّ قائلاً: "لكن برضه ممكن تشربها بسكر، جرب ومتخافش "، طلب من القهوجى بن زيادة لأشربه، ودَّعنى قائلاً: "ملعون أبوها، مفيش حاجة تستاهل ".

هرول عجوز من خلفى هاربًا من الطوب الملقى على وجهه، جرى أبناؤه وراءه بالسكاكين راغبين فى فتح كرشه، بعد زواجه من داعرة، اختفى مرعوبًا بالخرابة، دخلوا وراءه، بصقوا على وجهه، ونظروا بخسة فى عيونه بسبب فعلته المهينة، مزقوا بأجسادهم وأياديهم ملابسه ليظهر عاريًا، وقفت بعيدًا مندهشًا من امتلاء وجهه بالوسخ.

حين رفض التوقيع على بيع المنزل الذى يعيش فيه مع امرأته، نزلوا بشماريخهم دون رأفة على رأسه، متجاوزين الغدر وكل الشر، بتلك اللحظة سمعت صراخ امرأته وابنته اللتين

هرولتا لنجدته، قائلتين:"خدوا كل حاجة وسيبوه، خدوا البيت والهدوم والأكل، بس سيبولنا الحاج "سعيد".

شقت زوجته "مسعدة"ملابسها كالمجنونة، وصرخت فى السماء والأرض، لتوقف قتل زوجها، ابتعد أبناؤه خائفين وتركوا أباهم وسط دمائه النازفة وصوته الضعيف يئن بالألم.

لملمت "مسعدة "المتبقى من روحه وغطت عورته بالباقى من ملابسها الممزقة، سحبته باكية مع ابنته "شهد"لمكان بعيد، تاركة إحساس الجفاء لقلوبنا.

الآن أتذكر وجه الحاج "سعيد"الذى اشتكى لوالدى مرارة الوحدة، وزع محلاته وبيوته على أولاده بعد وفاة زوجته، وحجز لنفسه المنزل الذى ورثه عن والده ليعيش فيه الباقى من عمره.

كان أبى يمده فى لقاءاتهم بتعاويذ الصبر، سقانى من محل "العصار "مرات عديدة الليمون المثلج، اختفى مع زوجته الجديدة "مسعدة "، بعد هروبها من بيت الدعارة الذى تديره "فجر "، أجبرتها على معاشرة خمسين رجلاً مجتمعين، التهمها الرجال وتشاجروا على أعضائها، لدرجة أن عشرة منهم وضعوا قضبانهم المنتصبة مرة واحدة فى فرجها، وعشرين حاولوا التهام ثدييها،والباقى اشترك فى لحس عظامها ولحمها العارى، خرجت كالمجنونة وسط الشارع تبحث عن قلب رحيم، تلقفها الحاج "سعيد"كأب، بعد شفاء قلبها المحطم سجدت أمام هالة الرجل المتواضع مقررة عبادته، تزوجها ليحمى براءتها، وخوفًا من عيون الناس اختفى بروحها فى منزل والده.

اليوم حانت لأبنائه الفرصة لأنه تجرأ وآوى داعرة ، والأدهى أنه لم يكتفِ بذلك بل تزوجها كامرأة صالحة، وأنجب منها طفلة سترث البيت بعد رحيله.

الحوارى المتداخلة فى الشوارع والملتفة حول نفسها تعيدنى بالقرب من منزلى، تفاجأت بصراخ "مطيور "مبتهلاً وهو يقترب منى قائلاً: "واحدة ست بحق وحقيقى، عملت بأصلها، لملم الحاج عارها وعاملها زى بنته بعد هروبها من جوز أمها اللى كان بيأجرها ويعاشرها ليل نهار دون حياء، لكن الناس تحدثو عنها كامرأة تختلى برجل عجوز، رغم انه تزوجها على سنة الله ورسوله، ليحمى عورتها من العيون، فدافعت عنه وعملت بأصلها وردت الجميل!"

وسألنى مبتهجا: "رايح فين يا "منسى"؟" رددت بعفوية: "الشقة "، سحبنى قائلاً: "ومالوا يا خويا سكتنا واحدة "، كدت أسأله عن سر سعادته فى مصاحبة الأطفال، ابتعد عنى وتحدث مع صبى أشقر، ظل يتحدث معه، وضع يده فى جيبه وأخرج عدة جنيهات وأعطاها للطفل.

سمعته يقول:"بكره بعد صلاة الجمعة بمسجد التوبة"، عاد سريعًا ليسير بجوارى قائلاً: "عيال شوارع غلابة، لازم نساعدهم، علشان يقدروا يعيشوا، أيوة بقابلهم فى بيت ربنا علشان قعدة

العبادة تبقى مفيدة، بعلمهم كل حاجة، معاشرة العيال الصغيرين هم الكنز اللى فاضل لى يا "منسى".

حينما وصلنا عند المنزل، ترجل صامتًا درجات السلم، دق جرس شقته بهدوء، حالفًا ميت يمين لأتعشى معهم، ابتسم فى وجهى بحفاوة أثناء خروج زوجته "مهجورة"قائلة: "اتفضلوا، أهلاً وسهلاً بالحبايب "، رحبت بزيارتى مبتهجة، قبَّلت "مطيور"من فمه قبلة طويلة، دلالة على عمق المحبة .

جلسنا على ترابيزة عتيقة، نتناول أشهى الأطعمة، قدمت أطباقًا من الخضروات، أبهرنا مذاقها الطيب كأنه طعام الجنة، تذكرنا ببكاء وضحك متواصل أحداث اليوم الغريب الذى مر على الحى، استأذنتهما عائدًا لشقتى، دخلت سريرى بملابسى لأغفو فى نوم عميق.

لا أدرى لماذا دفعنى "منير" أثناء العشاء مع جارى إلى ملامسة يد "مهجورة"وهى تقدم الأطباق، كانت مشاعرها غريبة لدرجة أن إحساسى عاد لروحى مرة واحدة، فارتعشت، كانت عيونها منيرة، أيجوز أن يكون لها نقطة ضوء تدفعها مثلى للجنون؟

أحلام كثيرة طافت بخيالى عن علاقتى بكائنة مضيئة اسمها "جنية"، أرى وجهها البض فيدخل الأمل قلبى، أتخيلها عائدة بقميص نومها العارى، تسحبنى للسرير، تخلعنى ملابسى، وتدلكنى بنورها، وحين ينتصب حالى، تلامسه بعذوبة، عاشرتنى ساعات طويلة، أضاءت قلبى، فرأيت مرة أخرى جنة السماء ببيوتها الخشبية وسط الحديقة الواسعة.

عندما دق جرس التليفون فى الصباح نسيت الجنية وشاهدت "منير"يتصفح القاموس، ضحك قائلاً: "صح النوم يا سيدنا "، خرجت من الشقة مخترقًا شارع السوق دون اهتمام بيقظته ودخلت سنترالى، جلستُ على مقعدى وناديت على "سكران"، ليأتينى بفنجان القهوة.

دخل الليل بسرعة غريبة، فجردت كروت الشحن وسجلت كل شىء بالدفاتر، أغلقت السنترال عائدًا لشقتى، لم أشاهد باعة السوق أو جيرانى بالشوارع، كأن الجميع رحل لعالم النسيان.

ترجلت وحيدًا بالشقة مدهوشًا من حالى، تذكرت فجأة صوت أبى وهو ينصحنى قائلاً: "اجعل الحب والأمل هدفك ، لا تحِدْ عنهما مهما حدث".

بهذه الليلة تركنى ودخل حجرته مرتديًا جلبابه الأبيض، رافعًا يديه للسماء طالبًا الرحمة والسماح، خطف روحه ملاك فضي وطار من البلكونة للفضاء، نظرت خائفًا لشعاع النور المتدفق، دخلت الحجرة مسرعًا وزجرت جسده صارخًا: "أبوى....أبوى"، لم يرد على لهفتى وبكائى، تحسست جسده المتحول إلى عجينة ساكنة، فارتعشت من شكل الموت.

صرخت فى السماء لنجدتى، سمع أهل السوق صوتى، فعادت روحه لجسده قائلاً بابتسامة غريبة: "متخافش يا "منسى"، أنا أبوك يا وله تعالَ"، أخذنى فى حضنه ونمت سعيدًا برجوعه.

يمكننى الآن الاستغناء عن "منير" الذى يكمن بأعماقى ويشاركنى حياتى، سأذهب للنوم مستكملاً حلم الليلة الماضية، حين طارت روحى متلحفة ببساط الريح، ونضحت الأرض بروائح عصافير الجنة، شاهدت كل من أعرفهم، وهم يمرحون بمراعى الأمل، لمحت والدى بينهم يجرى منتشيًا بالنور المتدفق بقلبى.

حط بساط الريح وسط حديقة زهور الجنة بجوار امرأة فتية تشبه "زوبة"، نادتنى لأرافقها فى مسيرة حياتها، نزلت من على السجادة الطائرة لآخذ بيديها وأصعد بروحها لسفينة الحب التى رست على شاطئ الجنة، شقَّت السفينة المياه الساكنة لتأخذنا فى رحلة بعيدة فوق السماء العاشرة.

لازمنا أبى وأهل الحى فى رحلة الزفاف، فجأة ظهر رجل مذعورًا خلف سور الجنة، صرخت حبيبتى من قلبها: "الشيطان، الشيطان"، فغرقت السفينة فى أعماق المياه، رغم ذلك ظللنا أحياء، نستنشق المياه من أنوفنا وأفواهنا كالأسماك.

بحثت عن الحديقة والوجه الملائكى لحبيبتى "زوبة" بين أهل الحى الغرقى، استغربوا سؤالى عن فتاة فاقدة النظر ورائحة أشجار وحديقة مهجورة، ونسيانى طوق النجاة.

أتمنى اليوم أن أقابلهم بأحلامى مرة أخرى، لأرشدهم الي طريق الحب، الذى يعيدهم للأسواق، ويعيد لروحى الإحساس ببكارة قلب معشوقتى التى خلبت عقلى وجعلتنى أشعر بالسعادة.

"ميضة"

يخاف دائمًا "منسى" من اكتشاف نقاط ضعفه، فحين سمع أبوه صراخ قلبه، هرول لشقة جاره، فوجد "مهجورة" عارية تمارس العادة السرية على صرخات وليده المخفى.

وقبل أن يسألها عن مصدر الصوت قالت بشبق: "أخيراً رجل حقيقى "، فى لحظة فارقة قامت بتمزيق ملابسه ولحست خصيته وقضيبه، نظر إليها متدفقًا بصوت الصمت، وملأ أعماقها بالسلام، نزع من جسدها الآلام، حينذاك سألها عن "منسى"، لم ترد لهول السكون الذى غرقت فيه، نظر من باب الحمام ليجد الحية السوداء ملتفة حول رقبة ابنه وتنظر فى شر ناحيته، وقف الرجل فى مواجهتها وأطلق تعاويذ الخير، أمرها بالرحيل دون إيذاء أحد، انزوى الشر خارجًا من شباك المنور، وقتها آمنت "مهجورة "بقلب الأب الطيب وقررت وقف جنونها بالرجال.

مارس الرجل مع الجارة العشق سنينًا طويلة، رغم اندهاش الجربان لعلاقتهما الغامضة، وتعاميه عن فتح ممرات الحب بقلوبهما التى أطلقت أرواحهما فى السماء، ظل يفكر بخسة فى سبب الانسجام بين عيون زوجته وجاره.

يهجر الإحساس قلب صاحبي منسى الميت، ويندفع هاربًا للحيرة، لا يدرى حقيقة الكون التى كادت السيول أن تغرقه، ساعة حلول الظلام، ينسي الأم القديرة التي أطلقت نور الحماية فانتظمت الدنيا فى دورانها، يومها قال الشيطان لرفيقها الخالق: "اجعلنا نمرح مع طين الأرض يا وهاب"، فنادى الواسع على الإنسان مفتخرًا بروحه التى بثها فى أعماقه، قائلاً: "يا وريثى، هل تقبل أن تكون رسول الله على الأرض لتعمرها وتقاوم الشيطان وتنتصر عليه؟"

اندهش ابن الطين من تخيير الباسط القابض لكائن صنعته يداه، وحين عم أرجاء الكون الصمت، ولم يبق إلا صوت حفيف الأشجار، قرر المتكبر بأسى ترك الإنسان والشيطان ليتصارعا، وصرخ فى المخلوقات قائلاً: "اذهبوا فأنتم الطلقاء "، فظهرت الجبال والأنهار والأشجار والنجوم والأقمار والشموس، وبدأت الحرب التى لم تنتهِ بعد.

يومها قال المحيط والدموع تجرى كنهر على وجنتيه: "يمكن لابن آدم أن يطالبكم بالرحيل عن عالمه، فأين تذهبون يا كائناتي الضئيلة يا ملائكة الرحمة وأتباع ربة الكون؟"

رد الأرباب الخونة: "يمكنك أن تنهى حياتهم وتميتهم يا مولانا"، فصرخت الملائكة فى وجه الشياطين قائلين: "اجعلنا أحرارًا يا وهاب، نجوب كونك ونعبر الزمان والمكان كضوء خارق، لا تضع على حركتنا ورؤيتنا أية قيود يا منان".

صرخت الربة الطيبة : "يا عليم إذا كان الإنسي قد حررهم، فكيف للحى أن يميتهم؟" أصدر حكمه رغم بكائه من جهل عباده وظلمهم لأنفسهم من حمل الأمانة وقسوة الوحدة ، قائلاً: "انطلقوا يا اطياف فى عالمى الفسيح وقاومو بضرواة ابناء الغيلان "، من وقتها ونحن نجوب الكون، حاملين أسرار الأم بأرواحنا.

أعادني لحى الظلام عربدة "الجنون الزرق "بروح صاحبى وجيرانه، أطلقوا الأرواح الشريرة وسط السوق، نشروا الأسى فعاد الناس حيارى ، ملأ الأرباب الخونة المحال والمنازل بصكوك الكره، فيكفى أن ينظر الباعة لعيون أهل السوق لينتشر الذم والبغض، الوحيدة التى لم تفهم سر جنونهم وظلام أرواحهم هى الجارة "مهجورة".

خرجتْ مستأنسة بروح"بهية"وجلستْ على أنقاض الحديقة بين المحلات والأزقة الضيقة، مؤمنة بنزول المدد من السماء، لاسترجاع الأشجار والزهور والبراح الذى كان يملأ الفضاء، حالت "بهية" دون تحطيم قلبها، كشفت لروحها طريق النجاة من السواد الذى غطى سماء الحى.

واستدعى الشيطان "مرعى" الجربان ليشاركه معاشرة الأطفال، خبؤوا بمهارة الملايات وقطع الصابون والفوط والملابس الداخلية بميضة الجامع.

تخصص "مطيور" فى جلب الأطفال من الشوارع ومواعدتهم بعد أذان الظهر لإطعامهم ودعك أجسادهم ورؤوسهم المملوءة بالقمل.

وبعد انصراف المصلين، يغلق "مرعى" الباب ويدخل بحجرة الزكاة المملوءة بالطعام، يغرف للأطفال الخضر واللحوم، يتناولونها بنهم، يأخذهم "مطيور" للحمام داعكًا أجسادهم بليفة المحبة، يمسح برغوة الصابون أردافهم فيضحكون منتشين، وينتصبون عن آخرهم، فيعاشرهم "مرعى" على سجاد الميضة الناعم، مستمتعًا بملمس جلدهم الطرى.

يملأ الشيطان قلوبهم وهم يطردون الأطفال من بيت العبادة قبل انطلاق أذان العصر، ليستمتع "مطيور" بأرداف "مرعى الممتلئة، يحلق النماردة والغيلان فوق رؤوسهم، فينتشى "مطيور" مبتهجًا بالقذف فى فتحة "مرعى"، الغريب أن أهل الحى يعرفون الحكاية، ومع ذلك تركوا الأطفال فى رعايتهم ليطعموا جوعهم.

ينشغل صاحبي "منسى" بأصوات جيرانه، خائفًا من عودة الحية المسمومة ويتجاهل الظلام الذى عشش فى الأركان، ينسى رقة جارته الباحثة عن قلب رجل كريم، ويعيش فى عتمة السوق باحثًا عن أي أمل .

حين دخل النوم لعيونه جبت بروحه فى الكون، نظر من ثقب جدار النور، فامتلأت أعماقه برائحة الجنة، سعد قلبه وانتشى، وحول نفسه برشاقة لشجرة وارفة، لامست جذوعها بحب وراحة متناهية أرض الحديقة السحرية، امتدت بجذورها إلى باطن الأرض، وانتشرت فروعها واستطالت كأعمدة طويلة حتى السماء العاشرة، ظللت أوراقها المتزايدة أرجاء الكون، تحول بعدها لنجوم ومياه بحيرة ساكنة وقمر و شمس مضيئة.

تمكن من التحول لأى كائن ترغب أعماقه فى معرفة سر حياته، لكنه عجز عن الطيران لأسباب غامضة، ظل عالقًا بين الأرض والسماء، كأن هناك أسقفًا معتمة تمنع دخول النور لقلبه.

فجأة ظهرت علامات الغضب على وجهه، فعادت روحه مفزوعة لجسده، فأجبرتها للاغتسال بالمياه الحارقة لإزالة الشر من أعماقه، انقلب حاله وصرخ كالمجنون "كابوس....كابوس"، فأعدته ليمارس حياته، وسط سنتراله وشقته ووجوه أهل السوق!

فى هذا الوقت تمنيت رؤية عيون "بهيتى "، وتشبع إحساسى بضنينها، فدفعت صاحبى بحب لتحقيق حلمه والعيش وسط الجنة بمنازلها الخشبية المبنية فى السماء وسط حديقة واسعة مملوءة بالزهور الندية.

"غرقى"

صحوت من نومى متدفئًا برائحة جنة أحلامى، ارتديت ملابسى وتوجهت إلى سنترالى، قائلاً لكل من يقابلنى: "يا صباح الفل"، شىء ما بداخلى يجعلنى أتحفز للتخلص من "منير"، والتمتع وحدى بالشقة والسنترال ووجوه الزبائن، وأعماقى تبحث بهدوء عن الوسيلة الملائمة لاغتياله.

أغلقت السنترال رغم سطوع الشمس ، ودخلت المقهى، سألنى "سكران"دون مقدمات : "القاموس فين يا "منسى"؟ وانزوى منشغلاً بالمشاريب والحسابات، تسلل لأعماقى إحساس غامض، فغادرت المقهى محاولاً اكتشافه.

صرخ "مفجوع" بوسط الشارع، قائلاً: "اطلع بالقاموس يا بن الخرفانة "، نظرت ناحيته، واستكملت سيرى بداخل السوق، قابلتنى "الخضرية "وسألتنى، لم أرد مستغربًا اهتمامهم بأسرار ابي المهملة.

سمعت أهل السوق يحكون بصوت خفيض عن حوادث انتحار وقعت فى الأحياء البعيدة، يصفون بغرابة منظر مياه البحر الهادرة والغرقى المهرولين على الشواطئ الزاهية بالرمال، قال أحد الغرباء واصفاً المشهد: "ربطوا أنفسهم فى قيود حديدية ثقيلة ووقفوا فى صفوف طويلة متراصة كأسنان المشط، وألقوا بأنفسهم فى قاع البحر ".

حكايات أخرى عن اجتماع أسر بأكملها حول نار الميدان التى أشعلوها بأكوام القمامة فى الصباح، وألقوا بأنفسهم داخل لهيبها.

الجميع يتهامس عن ناس الأحياء الأخرى الذين فقدوا السمع والنطق والكلام والذاكرة، وحين اكتشفوا حركة أياديهم، تيقنوا من حاسة اللمس التى ملأت أفئدتهم، شبكوا أنفسهم بأصابع بعضهم، وصعدوا أعلى سطوح المنازل، ورموا بأجسادهم على الأسفلت.

أشياء غريبة تحدث حولى، ولا أحد يدرى كيف سينتهى النهار، نظرت من بعيد لشارع السوق، الباعة والمشترون مازالوا ينادون على حُسن بضاعتهم، كأنَّ من الطبيعى أن تجرى هذه الأحداث ويستمر الناس بممارسة حياتهم دون تساؤل.

أتصورهم يملؤون لوحة كبيرة، تظهر وجوههم الضاحكة وهم يتبادلون البضائع والأموال بين منازل حى الظلام بشبابيكه المفتوحة والمملوء بالأطفال والمطابخ وقمصان النوم والرجال العرايا والنساء الحزانى على العمر الضائع.

أسرع مخترقًا شارع السوق، عائدًا مرة أخرى لسنترالى، غير عابئ بنظرات الجميع، لكنى فوجئت بتحطم البوابة، وتقطيع سلوك التليفونات وتكسير زجاج الكبائن، هرول أهل السوق و سألونى : "فين القاموس يا وله؟" رددت بهدوء: "تركته فى الصباح على سطح المكتب وخرجت، ارتفع صوتى بغرابة مدللاً على الجريمة: ومن عاث بسنترالى يا كلاب؟"

نظروا فى عيونى كأنهم لا يعرفوننى، قائلين بخبث: "يا مجنون، أنت عارف مكانه ومش عايز تكشف أسراره!" هجم موظفو البلدية على روحى وسبونى، قائلين: "فين القاموس يا وِدَنى "؟ رددت : "لا أعرف " ، نظر أهل السوق من خلف عيونهم بشماتة، منتظرين إطلاق الرصاص فى بطنى.

تجاهلت شرهم وانسحبت بهدوء ، مقررًا العودة لشقتى، حذرتنى "تحية"وزوجها "هوسة"العائد من الأسر بإحضار القاموس وإلا اضطروا إلى تقطيع وجهى بأظافرهم.

استندت "صبرة الداية"على ابنها "حسن"العائد من الغربة ونادت علىَّ قائلة: "قل لهم أحسن لك يا واد لحسن يهدوا السنترال "، الجميع يعرف شيئًا ويخفيه عنى، ينظرون بجنون فى وجهى، كأنهم حيات شريرة تبث السم فى روحى.

شدنى الشيخ "سعودى"من ياقة قميصى قائلاً: "يمكننى طردك من الشقة يا خسيس"، اخترقت صفوفهم محاولاً النفاذ بجلدى، لم أهتم بالإشارات البذيئة من يديه، وسرت فى صمت آملاً النجاة.

وقف الشيخ "سعودى" فى مواجهتى شامتًا فى جنونى، لم يتذكر سلام أبى الذى دفأ قلبه أيام مرضه، واخفي عن الجميع أن زوجته الثانية "مخروقة"هى أخت "فجر"صاحبة مقهى الداعرات.

وحين جاءت زوجته الأولى "محروسة" لأبى تشتكى بخله ولسانه السليط، بنى لها حجرة خشبية فوق سطح المنزل واتفق مع الجيران على تسليمها الإيجار لتعيش ، ولم يتمكن من دخول البيت بحياة أبى أو لمس ضفرها.

بعد تحول الحى لمرتع للصوص، تمكن مع صبيان "فجر"من تلفيق تهمة الدعارة لزوجته الأولى، رغم حضور موظفى البلدية للقبض عليها وطردها، لكن قلبها لم يتحمل مشهد وقوف أحد صبيان "فجر" عاريًا أمام حجرتها، محاولاً شد قميصها وفعص نهديها، فماتت مذهولة.

الان يقترب "سعودى"من عيونى ويحاول خنقى، ابتعد عن ظلامه مستكملاً سيرى وسط السوق، اشاهد الحاج "سعيد"مع زوجته يجرى مرة أخرى أمام أولاده باكيًا آملا المدد من السماء، طالت أياديهم خده وجبينه بعد أن وقع على الأرض، لم يفعلوا شيئًا، فقط داسوا على رأسه بأحذيتهم، لأنه تزوج من مومس، دون اعتبار لعجزه اوكلام الناس البطّال، فكان جزاؤه التجريس والإهانة.

شاهدت "فجر"القوادة "تركب سيارة "حمدى"قريب "مهجورة"، سمعتها تقول بسخرية وهى تشير ناحيتى: "قال بيحب "زوبة" العامية قال!!"

تفاجؤوا بعيونى المنطلقة ناحية ألسنتهم، فتوقف التاكسى، نزلوا فى صمت، سلموا علىَّ بأيديهم خانعين، قطع السائق صوت السكون قائلاً: "متيجى معانا يا منسي، هنتغدى بالحديقة، رددت بغضب: "الحديقة اتحرقت ياغجر".

تركانى مرعوبين كأنى فاقد الهوية، أعماقى الحائرة تتساءل فى حياء عن علاقة جارتى "مهجورة "الطيبة "بفجر "القوادة".

يستعيد عقلى المقسوم صورة "حمدى "وهو يغادر شقة مهجورة كل جمعة بعد انتهاء الصلاة مبلولاً فى ملابسه، يغطى وجهه بجريدة قديمة، كأنه خائف من زيارة قريبته وقت انشغال زوجها بدعك أجساد أطفال الشوارع بحمامات الجوامع.

ومع ذلك تصور نصف عقلى الآخر بنفس اللحظة علاقة السائق الرقيق بكل نساء الحى، وكأنه مخلص أجسادهم المُعذَّبة، لا أدرى لماذا كان "منير" يدفعنى بغضب لأواجه السائق ليخرج من حياة "مهجورة"كأن نقطة الضوء ترغب فى التواصل مع جارتى بدلاً منى؟

أترجل وسط السوق مرعوبًا، فجأة عثرت على منزلى، انتابتنى حالة مزرية نتيجة اليوم المشؤوم، جال بخاطرى أن أهل الحى وموظفى البلدية والجيران يدفعوننى للدخول لظلام عالمهم السرى.

فجأة تذكرت وصايا أبى لجيرانه قائلاً: "أعماق البشر تحوى قوى رهيبة يمكن أن تهدم العالم وتبنيه فى ثوانٍ معدودة، فقط عليكم اكتشافها ومعرفة طريقة عملها، لمواجهة الشر الذى يسرى بدمائكم".

أشم رائحته بحجرات الشقة، كأننى أُولد من جديد، نعم هذه شقة عالم الخبايا الذى ضحَّى بعمره لنجاة الحى ، أتخيل تجمع أهل السوق والجيران من حولى فى شغف وأدب، ينتظرون كشفى حجاب النور، أحس بأملهم يسرى فى عروقى لمعرفة سر الحرمان من السعادة.

"حقيقي"

قبل وجود الربة الطيبة ، قُسم الكون بين العماليق، وحاز كل منهم نصيبًا فى السماوات والمجرات، عاشوا ملايين السنين كإخوة متحابين، لم يتعدَّ أحدهم على ممتلكات الآخر أو فكر بإيذاء أقرانه وشركائه.

عندما ظهر الجنس الغادر بينهم امتلأت أعماقهم بالاستحواذ والسطو على ممالك الآخرين، مبررين ظلمهم لأنفسهم بالشجاعة، وقتها ظهرت الأم وأطلقت فى الكون مسحوق الرقة الذى أذاب الشر بقلب الجنس المتعالى، وملأ قلبه بالنور.

دمر العمالقة الكون ولم يتبقَ إلا الجنس النمرود، بارك المتبقى منهم تنصيب الواحد الأحد، كملك بعد حصوله على "المفتاح السحرى "للعرش، فنال عن جدارة تاج العلم.

بعد تنصيبه، نفخ فى الطين فخلق الإنسان الذى تمادى فى الشر، وحين لم يرتدع أطلق الشيطان بعالمهم، ليشهد الجميع بجبروته وخلوده، ويدفع الإنسان لطريق المهالك.

ابتعدت الربة عن الصراعات وعاشت بالنعيم فى جنتها ، وارتكب الإنسان كل الجرائم بسبب عمى بصيرته، لكننا نتحمل الهوان ، ونواجهه ونتعاون ، باعتبارنا رسل الأم الكريمة لنمنع الأذى عن الأرواح.

نظهر للبشر كومضة منيرة فارقة، نخترق أعماقهم ونعيد البسمة لوجههم، نخطف أرواحهم ليلاً، لنكشط القبح ونلقيه بالمياه الحارقة وسط المحيطات، نزرع الأمل والمودة، نسعد المحيطين بفضائنا، كالزهور التى لا يهمها جنس من يتشمم رائحتها.

نخترق أعماقهم كومضة الضوء لنوقف صراعهم، نظهر كطيف خواطرهم لنعينهم على تحمل المصائب، نعيد الأمل لقلوبهم، فيتمكنوا من استعادة قوتهم.

ننشر السلام، ونقول لابن الإنسان: "لا تتوانَ عن فعل الطيب؛ لأن الوقت لا ينتظر أحدًا"، نملأ أعماقه بالمعرفة، ونحقق هدف رحلته القصيرة فى تشربه للامتنان.

خصالنا ثابتة لا تتغير، رائحتنا يعرفها الزاهدون، دائماً متيقظون لا ننام، بقدرة وتحكم وخفة، تجدنا بنفس الوقت فوق القمر وتحت الأرض وسط الشمس، لا تشغلوا أنفسكم بكينونتنا، لأن عقولكم لا يمكن أن تفهم سر أبديتنا.

إن العطاء الذى نمد به الكون، كفيل بانتصارنا، لكن عقل الإنسان يقف عقبة فى طريقنا، لأنه دائماً يقول لنفسه وللآخرين: " واحد زائد واحد يساوى اثنين، مع أنه الجاهل بخبايا الروح، ينسى حكمة الطبيعة، بتغيير الحروف والأرقام والأسماء واللكنات التى تنطقها الأجناس المختلفة، تاركة أرواحهم المشتركة تستمتع بالسباحة فى الكون، وتنعم بسمو الربة الطيبة التي تتجاوز الحوائط والسدود ونبرة الأصوات".

توضح حروف كلماتهم معنى الأشياء، لكنها لا تدل على الحقيقة، وليس كل ما يعرفه الخالق لقنه للإنسان، فهل يصدق ابن آدم أن واحدًا وواحدًا يساوى عشرة أو أكثر أو أقل؟ نعم فى قانون الأرباب كل شيء جائز، فالحقيقة لا تظهر إلا للعارفين بالغيب الذين شاهدوا بأنفسهم سطور اللوح المحفوظ.

يكفى للإنسان أن يتذكر أحلامه، وهو يطير ويعبر متجاوزاً المكان والزمان، غير عابئ بحياته القصيرة، ليفهم أن القوانين التى يدير بها عمره الضائع ليست هى القول الفصل.

دائمًا يسأل نفسه: "من أنا؟ مما يضطرنا لأن نشفق عليه، لأنه عندما يحاول فهم خبايا أرواحنا التى تفوق علمه ، يقع فى المحظور الذى نهتنا الأم عن ارتياده، فربة النور يجب أن تُعبد بخشوع وزهد فى كل ما تراه العيون أو تحسه الأرواح، لأن فهم السر فى الحياة وليس فى الموت".

نقدم أنفسنا لأعماق الإنسان على أننا الحقيقة، وحتى إن ظل يكذب على نفسه، فإننا مضطرون أمام حلمه هو الآخر بتحرير روحه، أن نقول : "استمر فى غيك وطريقك "، فلا يهم بالنسبة لنا أن نظهر بأننا أحكم الحاكمين، المهم للقديرة التى نؤمن برسالتها هو تحريرهم من أوهامهم، وملء أروحهم برحيق قمر الحصاد.

انطلقت فجأة ومضة ضوء من حولى، سعدت لشعورى بطيف "بهية"، تحسست روح"مهجورة"المحسورة على الحديقة التى كانت ملجأ النور الوحيد لقلبها.

تحولت الحديقة لأنقاض وأصبحت مأوى للثعابين والسحالى وسط دكاكينهم الضيقة التى دقوها بديلاً عن الزهور، فأظلمت حواريهم وانطفأت أرواحهم.

بين الحين والآخر أجد "بهية" تتنقل بين أنقاض الصفصافة كعصفورة، محاولة استرجاع أعماق الجارة، لكن جذوع الأشجار أصيبت بالجفاف بعد ردمت أغصانها وحرقت الزهور والحشائش، عبثًا حاولت "بهية" أن تدفع الجارة لتلمس النور بشوارع الحى المظلمة، لكن"مهجورة" فقدت إحساسها بالجميع، وفرت هاربة ، جرت بشعرها المنكوش وسط الشارع، باحثة عن اي أرض لازلت تشعر بالحياة.

امتلأت السماء فوقه بالقطران وأمطرت حيات وشياطين، فأصرت المرأة على الخروج ، وطلبت من "بهية" الدعم لترحل، لم تكن تعرف واجهتها، لكنها تيقنت بصحة طريقها .

حرقت الأرباب الخونة و"الجنون الزرق "والغيلان مراكبها كى لا تصل لمرادها، لكن روح الأم حضرت فى الحال ودعَّمت قلبها العامر، سمعتها تقول للنور المحيط بجسدها: "أى مكان آخر أحس فيه بروحى سيكون الأفضل "، بكت صديقتى وهى تتقدمها نحو مصيرها.

كانت حزينة على فقدان الحى وباعة السوق، لإصرارهم على الموت بعماهم، انطفأ نور قلوبهم، وهربت سعادتهم وراحة بالهم.

رغم محاولات القديرة بوقف الشر فى الحى ونشر السلام، لكنهم مازالوا تائهين، جاهلين دورهم فى الحب الخالص الخالى من أمل العتق من النار أو حتى الرغبة فى الجنة.

لازال صاحبى " منسي " يقف بينهم متفحصًا وجوههم، آملا فى طردى من حياته، رغم إخفاء رغبته، لكن أعماقه تتمنى سحقى قبل رحيلى.

أحس بأعماقى الممزقة مرة أخرى تعاودنى، هربت "بهية"من وجهى، دفعها "منسى"للهروب خارج الحى، الأسى يمزقنى، أتساءل كالملائكة والأرباب الخونة: "ألم يكن لنا دور آخر أفضل من تحمل المشقة بأرواح البشر ؟! " الحزن يفتت حواسى، الخوف يملأ أعماقى لرغبة صاحبى فى طردى وحرمانى من رؤية بهيتى مرة أخرى، أستعد للانطلاق فى الفضاء مواجهًا المجهول.

لا يفهم صاحبى إلا فى الاستحواذ مثل جنس العماليق الأشرار، لا يعرف عقله قيمة احتياج الكائنات لبعضها، يرغب فى دهسى ليقول لنفسه مختالاً: "وحدى أصنع المعجزات وأستمتع بيومياتى، دون عطاء جنس مخلوق "، نعم يرغب فى التحرر من كل شىء، ليعيش ميتًا وسط الأحياء، فليكن يا "منسى "مايكون، سأحقق رغبتك غير عابىء بغربة الطريق!"

"جثث"

أعود للشارع متجاهلاً ركلات كائنى المحزون، يسير بجوارى مندهشًا من صمتى، يبحلق فى عيونى ويقول: "هانت عليك العشرة والأحلام يا منسي ".

تركنى وجلس وسط جمع كبير يحكى عن غربة زوج "تحية" وسفينته التى حملته مع آلاف الهاجعين، ساد السكون و"منير "يحكى بلسان "هوسة"العاجز قائلاً: "حين وصلوا لقلب البحر، هاجت الريح ، فانقلب المركب ليعلن فقدهم، قاتلوا أنفسهم وبعضهم، غرق الكثير ، لكن "هوسة"نجا بفعل الظلام والرياح العاتية التى ألقته على جزيرة بعيدة ".

"استقبله كائنات غريبة تضع السكاكين الصغيرة بين أسنانها، أشاروا لعيونه للمرور وراءهم، حين وصلوا إلى مساكنهم التى شُيِّدت حول ميدان غريب واسع مملوء بأشجار التين الشوكى، شاهد وجوهًا مستطيلة كساها شعر طويل خشن تحيط بجسده الممدود بينهم، أشاروا إلى بعضهم بعيونهم وأصابع أيديهم فى صمت، سألهم ببلاهة عن معنى لغتهم، أزعج صوته سلامهم، تهيأ له أنهم سيقطعون لسانه، فأمسك هو الآخر سكينًا ملقى بجواره ووضعه بين أسنانه ."

"امتلأت وجوههم بالفرح، احتضنه كثير منهم، وقهقه كبيرهم دون أن يفتح فمه، انهمر المطر فجأة، وحل الصمت معلناً السكون، أكل معهم النباتات، وشرب مية المُحَيَّاة سنينًا طويلة، وفى يوم مشمس رفرف كائنه المنير على روحه، فوقع السكين من فمه وهو يصرخ فى السماء: "الحقونى"، تجاوز الرحلة والغربة وسكان الجزيرة وقرر الهروب وراء طيفه، تذكر وجوهكم فجأة وصرخ رغم الصمت طالبًا النجاة، ألقى الأغراب بجثته وسط المياه الغريقة، ظل تسعين ساعةً يسبح فى الظلام، انتشله قبطان سفينة تائهة مرت بجوار جثته، شفى الصياد جروحه وأعاده للشاطئ فعادت له الحياة ".

نطق "هوسة" وسط دهشة الجميع باسم القبطان الذى أنقذه قائلاً: "الصياد اللى بيعرف الخطر، اسمه "قنديل"، أنقذنى كأب وحمى ظهرى، عرف الحى وقالى إن فيه أهله وناسه، أطعمنى السمك النيء شهورًا طويلة، رجع الكلام الي لسانى ، وعندما وصلنا للشط، قال: "آخرتك هنا يا "هوسة"، اتحايلت عليه كثير، علشان أفضل معه وأخدمه ببلاش، قالى: "مراتك وعيالك أولى بيك "، لولا هو مكنتش رجعت ".

"نفسى أرجع أسوق الكارو وأجيب "لتحية "الخضار، كل "ماخش "على الحصان أفتكر الناس الخرس، وبحر الظلام، أيوة شفتهم بعينى، جرحوا روحى وخلونى تايه ".

ذُهل الناس من الحكاية، إذ كيف غاب "هوسة"العربجى "كل هذه السنين، ولم يشاهد إلا بشرًا خرسًا وسط جزيرة معزولة؟ وعاد مذهولاً رغم سلامة لسانه، وسط صمت الجميع أنهى

"منير"الحكاية، كأنهم لم يسمعوا صوته، فهموا من نظرات الزوج حجم الألم والغربة الذى دفعه للعودة آملاً بحضن الخضرية.

تناول "هوسة"سكينًا"وسط بكاء وأنين زوجته، وقطع لسانه وشفتيه، صرخت "تحية"ليداوى السامعين جرح العائد، أحكم بقوة على فمه وأسنانه، تاركًا دماءه النازفة تخر على ملابسه من بين شفتيه المجروحتين.

وقف "منير "على ضلفة شباك وسط هدير السوق، غالقًا فمه بشفتيه الصغيرتين بعد أن وضع سكينًا بينهما، قائلاً بنبرة حزينة لوجهي الصامت : "لازم نقطع لسانك وأنفك يا خاين العهد والأمانة"، و بكى مستكملاً: "طريقنا مختلف يا صديقى ".

أخذته فى حضنى ورفعته على كتفى، قائلاً بود: "لا تحزن يا "منير" لا تحزن، سنجد طرقًا أخرى تجمعنا ".

سار بجوارى حتى وصلنا لباب شقتى مندهشًا من موت مشاعرى، دخل ورائى كأنه لا يعرفنى، جلس على المكتب، قائلاً بأسى: "مكملتش قراية القاموس عشان تنسى شكل الحية اللى كانت هتكلك فى حمام الجربان".

يمزقنى لسانه السليط وطريقته الساخرة، أرد عليه بحزن قائلاً: "ما دمت لا أعجبك فيمكنك تركى لحال سبيلى"، رغم نحيبه الذى أحسه بأعماقى، لكننى قررت الاستغناء عنه، ، الشىء الغريب أننى فوجئت بدخول الباعة وجيرانى الشقة جماعات جماعات، متسائلين بوجهى كهارب جبان عن مكان القاموس.

انتفض "منير" غير عابئ بأهل السوق، استطال نوره وسار بمواجهتى على الأرض، محاولاً خنقى، أحكم قبضته على رقبتى مشاركًا الجميع حصارى، نظرت لعيون الباعة المندهشة من قدرتى على المراوغة، تحول "منير"إلى وحش كاسر، استنجدت بالجميع طالبًا الرأفة، خيم الصمت علينا، تحسر الجميع على المجنون الذى يرفض الإعلان عن تعاويذ قاموس جارهم الطيب.

عاد كائنى لضآلته، كأنه لا يحس مصيبتى، نظر لعيونى بغضب، ودون أن ينطق فمه أو تهمس روحه، بكى فى صمت، لحظتها أمسكت بقميصى الواسع وشققته للذيل، نظرت زوجة جارى من داخل شقتها لأعضائى التناسلية بشبق، صارخة: "متعملش كده فى نفسك يا خويا، كلنا فداك يا روحى ".

تركنى الجيران والباعة بوجوههم البائسة، لأواجه مصيرى بعد رفضى ممارسة دور الرجل الميت، قال "منير" بصوت وطريقة أبى بعد أن أصبحنا وحيدين: "لن تحس أبدًا بالفجيعة "، جلس بجوارى كنقطة مياه ساكنة واستكمل: "هل تتذكر صاحب المكتبة؟ أتعلم كمّ العبء الذى

تحمّله لتصبح رجلاً، تتحمل الأمانة، لتكتشف بنفسك طريق العلاج؟ قائمة التزامات طويلة أرهقته دون أن يحس به أحد ".

"حينما تمنيت وأنت بالسنترال ألا ترَى وجهى؟ تحسست طعم النجاح الممزوج بالهزيمة، قائلاً لنفسى: "الآن أصبح رجلاً، يمكنه الاعتماد على نفسه، وإرشاد الجميع لطريق النجاة، فقط لا يجب أن تشق الهدوم، أو تخرج عن دينى "، بكى من بعيد فى عيونى ورحل تاركًا جثتى الحائرة بين أهل السوق.

غادرت الشقة فى صمت، ملتحقًا مرة أخرى بالحوارى، قابلتنى الداية تسحب "حسن" وزوجته التى أحضرها من بلاد الغربة، طلبت منى البحث فى القاموس عن حل لعقدة لسانه، منذ عودته، ورؤية الحى، أغلق فمه ولم يتناول الطعام أو يتحدث مع أحد.

سألت زوجته ببلاهة: "لماذا أغلق حسن فمه؟" ردت قائلة: "حكى بغربتنا عن الأهل الطيبين وشارع المودة، بعد عودتنا سألته: "أين الحى والناس الذى شوقتنى اليهم؟ نظر فى عينى نظرة طويلة لم أفهم مغزاها، وجلس مكسورًا على أسفلت الشارع أمام المنزل، وأطبق شفتيه العريضتين على لسانه، معلنًا الصمت ".

بكت المرأة التى تركتنا وذهبت للركوع أمام عربة يد تبيع الكرشة ولحمة الرأس، سجدت أمام رؤوس الأبقار والجواميس المذبوحة، غير عابئة بتعليقات النساء التى تملأ البلكونات، نزلت على ركبتيها أمام عيون الحيوانات المبحلقة فى جثثنا، تجاوزت الجميع وتعليقاتهم، كأنها تدعو آلهتها لتنجو بروحها من غربة الحى!

نكشت شعرها فجأة وعرت صدرها وصرخت بأصوات غير مفهومة على السماء، نظرنا جميعًا ناحيتها وهى تجرى ككلبة ناجية من الطوفان، هرولت بعيدًا للمجهول، دون أن يهتم زوجها أو "صبرة "بإعادتها أو معرفة مصيرها.

فوجئت "بتحية "تقترب من وجهى، وتقبلنى على رأسى، لأدلها على علاج لخرس زوجها، قابلنى "سكران"و "مفجوع"والحاج "سعيد"وزوجته "مسعدة"وابنتهما الجميلة "شهد"وأولاده القساة والباعة ورواد المقهى، كلهم سألونى عن مكان السعادة ، وطالبونى بعمل الأحجبة لإعادة الخير وتخفيف الآلام.

دون انفعال أو فهم لما يجرى، قررت العودة لسنترالى، فتحت الباب وجلست على مقعدى ، انتظرت ساعات طويلة آملاً دخول الزبائن، لكنهم رفضوا النظر فى عيونى، فقررت غلق الباب والعودة إلى السوق مرة أخرى.

لمحت الخضرية تجلس وحيدة بجوار عربتها الكارو، وتمسك برغيف ساخن مملوء بأقراص الطعمية وتقضمه بشهية غريبة، قالت لنفسها بصوت مسموع: مش مهم..مش مهم أى

كلام يا بت جوزك رجع، ويمكنه فتح البيت "، الشيء الغريب أن طيفًا مضيئًا سار أمامها حتى منتصف الشارع، ترجلت وراءه بعد أن ألقت رغيف الخبز على الأرض، وفى لحظة صرخت بعلو الصوت قائلة:"الحقينى يا أمه..تعالالى يا آبه"، تجمع الناس من حولها لإعانتها على تحمل الوجيعة والاستمرار فى الحياة.

سرت بعيدًا عن الجمع الغفير باحثًا عن نقطة الضوء التى اختفت من حياتى، بلحظة فارقة مزقت ملابسى كالمجنون وأنا أصرخ كى يعود النور لروحى، حاول أهل السوق مداواتى،غطوا جسدى العارى، بكوا على وجيعتى.

حاولت كائنات كثيرة بوجوه مرعبة كوميض النار تقطيع وجهى بأظافرها، بكت كائنات منيرة من حولى بصوت عال كالعصافير وملأت السماء بالحب.

فى لحظة مشحونة بالأمل تسابق الجميع للحيلولة دون موتى، تلملم "صبرة الداية"أزرار قميصى، قائلة بتوسل فى عيونى: "هرجعوا سليم، بس متخرجش عن دينك تانى،، علشان خاطرى ارجع، واحنا هنتكفل بكل حاجة ".

حتى "هوسة "الأخرس، اقترب من جمعنا، ونظر من بعيد لعيوني ، أحسست بدموعه تبلل أسفلت الشوارع والحوارى ، طبطب على ظهرى "مفجوع"، قائلاً: "حتى لو مظهرش القاموس، احنا عارفين آخرتها، ارجع يا ضنايا وسيبك من اللى فات ".

أجول بخاطرى حزينًا بشوارع الحى ومقاهيه ومطاعمه وباعته، وجيرانى وكنيسته ومسجده، أسير بعيدًا عنهم وسط المبانى والبشر الذين يعلو وجوههم السواد، أترك مجالهم وأسرح بعيدًا فى الخرابات، أحس بُسحب القطران تغطى السماء، أشعر بضلوعى تتمزق، آه من قلبى الحائر، عليه مواصلة السير، جاهلاً عنوان الطريق.

يقترب الحاج "سعيد"وزوجته "مسعدة وابنتهما أميرة من جسدى مندهشين، يتحسسون بغرابة حواسى الميتة، يحاولون مداواة جروحى وإعادة ذاكرتى، انبرى الحاج قائلاً:"جرحنى الخوف، ولولا أبوك لمت من الحسرة، عشت بروحين بين نفسى وولادى، عرفت الغاية والطهارة بالمشى وراء نوره، اتجوزت "مسعدة "وخلفنا "شهد"، وبعدت عن شر عيالى، راضى بالسعادة فى حضن مراتى، ارجع يا ولدى لا يهم ما فقدناه، المهم منعش فى زمن تانى، اقبل حياتك وساعدنا ليعود ذهنك سليمًا معافى من الذهول".

تركنى لحالى وسار مع زوجته وابنته، انكفأتُ على نفسى مدهوشًا من وجودهم حولى وانفصالى عنهم، أعادنى كلام العجوز مرة أخرى لعقلى المقسوم، ترك الجميع جثتى، وذهبوا لفض المشاجرة التى وقعت بين "زخارى" البقال و"مرعى" المطرود من الجامع بعد فضح علاقته "بمطيور" الجربان وأطفال الشوارع.

شـاهده "زخـارى" بـين أذان الظهـر والعصـر يسـتقبل الأطفـال بـالجـامع بـدعوى إطعـامهم، لينفرد بعريهم فـى الحمامـات مفجرًا غضـبه ويأسـه بـين أردافهم، يعلـم الجميـع أن "مطيـور "كـان يمتطيه بعد ذلك ليخفف الألم والوجع الذى لازمه بعد فقدان ابنته "محمودة"السمع والذاكرة.

صرخ "زخارى": "مش عايز يدفع ديونه وبيطالبنى بالجزية، متجاهلاً إقامة مبنى الكنيسة قبل مبانى الحى وجوامعه"، حاول الجميع فض الشجار، لكن "سكران" و"مفجوع" تعهدا بدفع ما على الشيخ، فتركه "زخارى" لحاله، مبتعدًا بشره بعيدًا عنهم.

جلس البقـال باكيًا، يحكـى عـن صـاحب المكتبـة الـذى كـان يأخـذه مـن يديـه يـوم قُدَّاس الأحد، قال بأسى لأهل السوق: "مش مكفيكم اللى عملته الأيام فى شيبتى، أخذ ربنا روح مراتى، وهاجر أخواتى وأهلى لأحياء بعيدة، أتستكثرون وجودى وتربية "نصحى"بينكم يا أهل الحى؟"

الدنيا تلف وتدور من حولى، أمواج الشمس الحارقة تتقاذفنى، وأتوه بمجدافى بعيدًا فى بحر غريق ممتد طويل، كلما نظرت لتجمعهم، أعبر أميالاً وحدى، فأجد روحى مصلوبة بقلب صحراء جرداء جافة، أحلم بنقطة مياه تبلل شفتى المغلقة، كأنى شجرة شوك جفت أعرافها من العطش.

رغم ذلك يطلب منى الجميع العودة، ليتحدثوا بسماعات التليفون، وسماع صوت أقرانهم وأعدائهم الذين يتمنون رؤية وجوههم أو تقطيع أجسادهم، أصرخ فى صمت وأهذى بصوت عالٍ قائلاً: "كيف لينبوع المياه الوحيد أن يمدكم بالحياة، وهو خاوٍ من المشاعر؟ " لكن الآملين فى العيش يقاومون للنهايـة، لبلوغ النجـاة التـى بشـر بهـا العـارف بالخبايـا الـذى عـاش بيـنهم كنبـى، وتركهم فى النهاية حزانى دون رسول جديد، يملأ أعماقهم بالسعادة.

آه يـا ألمـى! أيـن أنـت يـا كـائنى المنيـر؟ أفتقدك هذه السـاعات، لـو كنـت معـى لحافظـت على هويتى وامتنعت روحى عن تمزيق ملابسى وسط السوق، لكنلا مفر من المكتوب ومشاهدة الجميع عورتى.

الصـمت يمـلأ المكـان رغـم العيـون المبحلقـة فـى الفـراغ، تركـونى وحيـدًا كـأنـهم يعلمـون مصيرى، ودون الاهتمام بيأسهم وشفقتهم، قررت العودة.

"منبوذ"

أتساءل في خزي والموت يفتت أحشائي: "هل كان الأرباب الخونة محقون في تمردهم على القديرة؟ من العار أن يفكر أحدنا بالشر، لكني يائس وحزين، فكيف يعيش كائن وحيد في الكون الشاسع اللامنتهي دون قرين يمده بالسلام؟"

مطرود من عالم الحي لفضاء لامتناهٍ، السماء مفتوحة كلها أمامي، أحتاج لإشارة تدلني على اختياري طريق الربة القويم، الآن يجب ملء روحي بالأمل، للعثور على نورها قبل أن يدمر اليأس روحي.

أنتظر هدوء العاصفة التي تعرض وجودي للهلاك، إذ كيف يمكن للسمك أن يغرد في أعماق المياه؟! أتمنى عودتي لحديقة جارة صاحبي وجنتها البهية لوقف هذياني، أتمنى مناكفة "منسي" وسماع أنينه وحزنه.

أقاوم الظلام الذي يغرق الأرض وأتحول لشجرة، في ظلي يبتهج الفلاحون ويمسحون العرق، يغمر النور وجوههم وهم يتحدثون عن قمر الحصاد، يطبطب أحدهم على جذعي فيتزايد حزني، يندهشون من حال الشجرة التي تتساقط أوراقها رغم سكون الرياح.

أتحول لبحر واسع، أشاهد البشر السعداء عرايا على الشط، يقولون لبعضهم البعض: "عيد سعيد"، يرتدون الجلاليب الجديدة، يتسامحون ويحضنون بعضهم، واسمع أحد المصطفين يقول لقرينته: "حين لا يبقى في قلبك إلا الحب ستنعمين بالسلام".

أنتشي كسمكة وأسبح في الأغوار وسط أنواع الأسماك المتآلفة، يهمس السمك الصغير والكبير سعيدًا بدوره في الفقس والمطاردة والالتهام والهروب.

يا ربة الروح.. أكل الخيارات أمام المحبين مؤلمة؟ وكيف يمكن للبشر الذين طردوا الإحساس من أعماقهم أن يستمروا حتى النهاية؟ هل يشعرون بهذا الفقد، أم أنهم وضعوا بدلاً من بصيرتهم صخور ميتة؟

أصمد كشجرة صبار، أشاهد المقابر المتراصة خلف بعضها، أتساءل في حيرة عن سر الشواهد المرتفعة لمدافن الموتى، أما كان يكفيهم حرق جثثهم المتحولة لتراب؟ يلتف حولي بشر مبتهجون بزيارة أجدادهم وأمهاتهم، حاملين الورود والأطعمة ليقدموها كقرابين للآلهة، لتغفر لموتاهم وتعيد لأرواحهم الطهارة.

أجري وسط الشقوق والظلام كفأر، يمسك نساء ورجال أحذيتهم ويجرون خلفي محاولين قتلي، أختفي في الممر المظلم السري، هارباً من وجوههم، أندفع لمواصلة طريقي، آملا في تجاوز محنتي، وتحسس ذرة حب لأنجو ، حين أخفى "منسى" الحقيقة عن الحي خسر الجميع، وبدلاً من كشف حجاب النور، طردني من أعماقه كأنني السبب في أساه.

أشفق على نفسى، رغم املي في العثور على أم النور، لملأ قلبى بالحب، لكن الأسى يمزق أحشائى لفقد قرينى الإحساس بالسعادة.

الكون يموج من حولى بصراعات لا تنتهى، فى الشرق يحلب الأرباب الخونة نور العيون، ويضعون بدلاً منه ذل الشماتة، فى الغرب يجتاح العماليق الأراضى والبحار مختالين بطاقتهم المتجددة فى الحرق.

يصرخ الجن الأزرق فى الجنوب على النساء الباكيات ليقطعن ثديهن لإطعام أطفالهن، وتتفجر الغيلان فى الشمال ببحور الثلج ليتحول بإرادتها الغاشمة لألواح ساخنة سوداء.

أتملل وأصرخ يا ربتنا الغالية: "أى اتجاه علىَّ السير فيه؟" يبادلنى الصمت السكون، فأعيد الصرخة لاسمع صوتها يصدح: "العبادة طريقك يا ملاك الرحمة "،أحس بدفء الأعماق يتسرب لأحشائى، لكن الشيطان يقف بالمرصاد ليحرق إحساسى بالحياة.

صراعات وأرباب وبشر ودم وظلام، دون أمل فى بلوغ النجاة، أعاود السير والجرى والتحول، آملاً فى بذرة أمل واحدة من عيونكم.

يا فرس البحر تعال وانتشل روحى من الغرق، أحس بانقطاع صلتى بالأحياء، وانقسام عقلى وفقدانى للذاكرة.

يبادلنى الصمت الرد: "المشكلة تكمن بروحك، أنت لم تضع المعلومات التى تعرفها عن صاحبك فى مكانها الصحيح، فتاه الفرق بين الصحيح والخطأ، عليك تشفيرها من جديد لتكتشف سر البراءة "، فقدت عينى وبصيرتى، أعجز عن تمييز الأشياء رغم وجودها أمام عينى، أى مستودع بروحى تخفى فيه الأم الرحيمة السلام؟!

أعرف ببصيرتى لون نورها الخلاب، لكنى لا أتذكر سبب وجودها، أرى عيونها لكنى لا أدرك متي وأين سمعت صوتها؟"

يا أمي الغالية: "أى الطريق نسلك حتى يغسلنا نورك وننعم بمجدك؟!"

يرد السكون على صراخى: "أنت قطرة فى محيطى، كافح لتكتشف بنفسك السر ، أنت نقطة منيرة تبحث عن الخلاص "، فجأة ينفتح باب الحى أمامى، فأعود لشارع السوق متمنيًا رؤية وجه منسي، أتشمم رائحته، آمل بمرافقته مرة أخرى، لنصنع الأحداث المبهجة فى الملكوت العالى، أشتاق لدفء روحه وبهجة أعماقه.

سأقابل "بهية" و"مهجورة"، وأقول لهما الحقيقة، نعم اختفت الحديقة ولم يعد هناك صفصاف أو زهور، سيحزنون لحالى وطريقى المجهول، لكنى لن أستمر بخداعهم.

وسط السكون والليل الحالك، أشاهد "بهية" تتقدم "مهجورة" مقررين الرحيل عن الحى، استوقفتهم واسألهما عن مصيرهما، فتصرخ "بهية" بوجهى: "دعنا بحالنا يا "منير"، أخذتها فى حضنى وقلت: "لا يهمك شىء يا حبيبتى، لم يحدث ما يستحق حزنك أو هروبك".

تبرمت صارخة بعد أن شقت "مهجورة" صدرها، قائلة: "ابتعد عنا يا أعماق "منسى" البغيض، لم أتراجع وقلت للجارة: "استكملى سيرك، فالحديقة اختفت للأبد، سخرت "مهجورة "قائلة لزوجها: "لا يهم أى شيء يا عزيزى، لا يهم".

نظرت "بهية" ناحيتى قائلة: "الجميع يعرف ما حدث، فلماذا "تُبكِّت" فينا يا خليل الوحدة؟ كأنى ملبوس بشيطان أو بملاك لا أعرف، فانطلق لسانى : "نعم دفنت الحديقة فى الأنقاض، وطردنى صاحبى من أعماقه، وتحول الحى لمرتع للشياطين والغيلان والجنون الزرق "، لكن "أين الأم الرؤوم؟ هل ستتركنى أموت وحدى؟ يجب العثور عليها لإعادتى للطريق ".

سخرت الجارة الطيبة قائلة "لمطيور": "دور على حتة تنام فيها يا جربان"، لم أهتم بيأسهم، وتمسكت بأملى، سأحقق هدفى بالعثور على جنة الام لأعيد الأمل لقلبى، ستشفق على روحى، وأنا أشكى لها قسوة أعماق صاحبى، الذى صحا من نومه، ودون فهم سبب الفجيعة، اقترب من عيونى وقال: "لا أريد أن أرى وجهك للأبد".

سمعت بهيتى فى نفس اللحظة تصرخ ، وتطاردنى كأنى منبوذ، أشاهد عيون المارة القاسية وهى تقترب من "مهجورة "التى فاجأتهم وأخرجت خنجرًا صغيرًا، وجرحت صدر زوجها، تتضامن "بهية "مع الزوجة صارخة فى وجهى: "ارحل للجحيم وحدك".

أبتعد مجرجرًا أذيال الخيبة،لم يعد باستطاعتى الاقتراب من مجال صاحبى، أتساءل بغرابة: "هل روحه المحرومة من الحب لم تعد بحاجة إلى قرين؟ أرجوكم إن سمعتم منه أو عنه بلغونى، لأنه أملى الوحيد".

"مراوغة"

تجاوزت نظرات الجميع ، وسرت دون هوية عائدًا لشقتى، وجدت بابها مفتوحًا على مصراعيه، دخلت الحمام متجاهلاً اقتحامهم لباب المكان الذي يأّوي جسدي.

أدرت الصنبور لأبلل حلقى ، لكن الصدأ الذى عاق مرور المياه بالمواسير المتهالكة حال دون ري ظمأي ، انقطع النور فجأة، فراودنى هاتف لأبحث عن قاموس والدى.

أخرجت ولاعتى، باحثًا بالضلف المغلقة، وتحت السرير وبقلب المراتب والأركان والزوايا التى عشش العنكبوت فى جوانبها، جُبت الشقة ذهابًا وإيابًا، لم أترك خرم إبرة إلا وبحلقت بفتحته، ألقيت ملابسى المتسخة فوق الكراسى وتحت الحلل والأطباق ، آملاً بانفراج الكرب والظلام، وقلت لنفسى: "ربما أخفاه جارى أثناء اقتحام الجميع شقتى".

تسحبت وراء النور المتسرسب من ضلفة بابه، ودخلت متلصصاً الي حجرته، شاهدته يرتدى ملابسه الداخلية ويتشاجر مع "مهجورة" شبه العارية، تركا باب حجرة أولادهما مفتوحًا واستمرا فى الصراخ دون الشعور بوجودى.

سألت "مطيور"عن القاموس، نظر إلى "مهجورة" ببرود كأنه لم يسمعنى، بادلت امرأته نظرات الود، قائلاً: "لا يجوز أن يسمع صوتكما أحد يا جارتى الجميلة"، تجاهلتنى وحملت سلة مملوءة بالكعك، وخرجت من الباب، ترجلت درجات السلم خلف هالة مضيئة، تدفعها للتقدم غير عابئة بأحد.

قام "مطيور" من على كرسيه وسار أمامى، باحثًا عن وجه زوجته التى تقدم لعيونه الابتسامة كل صباح، كي يخرج إلى عمله منتشيًا بروائح الفل ، دون أن يدرى كل طلة صبح بأن رحيقها الفتان هو سبب حياته.

دخل المطبخ باحثًا عن طعام، وحين لم يجد أطباق الجبن والفول، دخل الحمام بأمل العثور عليها، لم يجد ملابسه الداخلية وفوطته وماكينة الحلاقة التى تضعهم فوق الحوض، نظر حوله حائرًا ودخل حجرة الأولاد ليطمئن على سلامتهم وهم يُغُّطون فى النوم، ومع ذلك لم يجد كراريسهم التى ترصها بانتظام على المكتب، ليضعوها فى الحقائب لحظة شروق الشمس ، على عكس كل ذلك كانت الشقة مقلوبة ولا يوجد بها إلا الزوج الباحث عن رفيقة عمره.

نادى بصوت خافت: "يا "مهجورة"، يا قرينة روحى، يا ملاكى"، حين لم يسمع صوتها، فتح شيش البلكونة، فى هذه اللحظة تسرب القلق لقلبه، لأنه اعتقد أنها تنشر الغسيل وتمد جسدها على السور، مرددة بحب وهى تدير ظهرها كعادتها: "حاضر، حاضر يا خويا، جايه أهو".

مال بجسده من البلكونة فاندهش من الضجيج، سمع همس وصراخ المارة الباحثين عن امل ، وقتها تيقن بأن زوجته غير موجودة بالمنزل، وحينئذ حدثتُه مرة أخرى مؤكدًا نزولها للشارع شبه عارية، نظر إلى عيونى كأنه تفاجأ بوجودى وصمت.

سار متصنعًا الهدوء، باحثًا مرة أخرى بضلف الدواليب وبين الملابس التى تملأ أرضية الحمام عن طيفها، فتح باب الثلاجة قائلاً لنفسه: "لعلهًّا تكون مختبئة بين أكياس الفاكهة والألبان".

برضا عجيب، مسترشدًا بصوت أعماقه قال لنفسه: "أين تذهب هذا المساء؟"

أتذكر الآن أثناء دخول جيرانى شقتى منذ ساعات، شاهدتها منكوشة الشعر تجلس على كنبة الأنتريه فى شقتها، تنتظر حضوره، دخل عليها دون أن يلاحظ تجمع أهل السوق بشقتى، ألقى السلام عليها ، قائلاً: "أهلاً بزوجتى العزيزة، أهلاً بنور عينى "، لم ترد، واستمرت مسددة نظراتها الخاطفة إلى قلبه الواهن.

خلع حذاءه ودخل حجرته، فصرخت قائلة: "كفاية بقى، شفلك حل، زهقت خلاص، مش قادرة أكمل يا أخى "، رد الجربان بصوت مسموع عن طيب خاطر: "إيه اللى حصل بس يا عزيزة النفس يا شريفة؟"

تركها ونادى على أولاده ليغيثوه، بكوا بصوت مسموع محاولين جره بعيدًا عن مجالها، لم يكترث لتوسلاتهم محاولاً معرفة سر انقلابها.

نظرت "مهجورة" ناحية شقتى لتواسينى، ركزت على عورتى، وسمعتها تقول : "متعملش فى نفسك كده يا خويا، إحنا فداك يا روحى"، سارت فى دهشة ناحية زوجها متجاوزة كل شىء وقالت بحزن حقيقى وعيونها تمتلئ بالبكاء: "لا شىء يا زوجى العزيز، لا شىء "، وبعزيمة وبسرعة يعجز البشر عن مضاهاتها، أمسكت ياقة جلبيتها وشقتها للذيل.

خرج أهل السوق من شقتى بعد يأسهم من معرفة مكان القاموس، فدخلت بشقة "مطيور" واقتربتُ من روحه لأهدئ من روعه، فقال بأسى: "شفت وركها وصدرها العارى؟" قلت "نعم"، نظر فى عيونى وصمت، كأننى نملة تتلمس النجاة من قسوة أقدامه، أحسست وقتها بكراهيته تصل الي أعماقى، لأننى كما ادعى لنفسه السبب فى حزن زوجته بعد علمها بحقيقة علاقته بالأطفال الذين يملؤون السوق، تخيل أننى أفشيت سره أثناء معاشرتى لها بالمطبخ.

أمام الجبل البارد المنتصب فى قلب الرجل، جلست "مهجورة" بمواجهته بعد تغيير ملابسها الداخلية وعادت كامرأته التى يعرفها، دخلت المطبخ، ونادت عليه، ليرص الأطباق على ترابيزة الصالة، جلس مذهولاً وسط أبنائه يأكل فى صمت، رغم أنها عادت لطبيعتها، لكن فمها المغلق المختوم بالشمع الأحمر، عجز عن البوح بمكنون الروح المكتوم.

بحلق جارى فيها ككلبة مقطوعة اللسان محاولاً حثها على الكلام، جلست وحيدة ترفض مداعباته والرد على أسئلته وتمادت فى الصمت، دخل أولادها لأسرتهم بعد نظرتها الآمرة.

استدارت ناحيتى وسألت زوجها: "لسه معرفتش إيه اللى حصل؟ ابتسم كعادته وقال بنفس هدوئه: "إيه اللى حصل؟" نظرت فى عينيه وردت باستياء، كأنها تحاول سحب الإحساس الميت من أعماقه، قائلة: "لا شيء، لا شيء يا زوجى الطيب "، ترجلتْ أمامه بثقة، كأنها مولودة جديدة، لم يعرفها من قبل، سارت كأنها تعتذر عن شق الهدوم والإهمال فى تربية الأطفال ورعايتهم.

عادت وحيدة لتجلس على كنبة الأنتريه، فى تراجعها، سجل عقلى بتلك اللحظة عدة آلاف من الصفحات عن الزوجة المهجورة التي قدمت الدنيا لها الإهانة والإهمال والهجر والغربة والقهر والحزن، لقبولها أوضاعًا جائرة، فقلت لنفسي لكنها هى السبب لأنها لم تتجاوز طوال عمرها المديد سقف شقة الزوج ورائحة بوله!

عبثًا حاول" الجربان" بحديثه الصاخب أن يخرجها عن صمتها، لمعرفة سبب الفجيعة، لكنها ابتسمتْ فى وجهه بحياد، قائلة: "لا شىء".

بعد تجاهلى ورفضهما سماع نصائحى، أتذكر أننى تركت شقتهما وعدت للسوق للمشاركة بالأحداث التى مزقتنى وأدت لانهيارى، لكنى عدت مرة أخرى، للبحث عن القاموس متوقعًا الدعم من الجربان وإرشادى لطريق النجاة، وعند انقطاع الكهرباء فجأة دخلت شقته وراء النور، ففوجئت بخروج زوجته شبه عارية، حاملة فى يدها سلة الكعك، وقتها أصيب "مطيور" بعمى البصيرة فلم يرها أو يحس برحيلها.

توقعت قيامه ومنعها من الخروج، لكن هيهات للروح المسلوبة والعقل المعتم، أضحى جارى بعد فقده الإحساس لا يشعر بشىء، استمر يبحث عنها بين حجرات شقته دون أن يحس انسحاب رحيقها الفتان من مجاله.

ارتدى ملابسه ونزل السوق ليشترى العشاء، لعلها تعود آخر الليل من عند أقاربها، لكن الشىء اللافت أن الجيران لم يحسوا بشىء، حتى الباعة و"سكران" لم يبلغوه كعادتهم بخط سيرها.

حين عاد بعشائه وجد شقته خالية، حتى أولاده النائمين اختفوا من أسرَّتهم، اتصل بأقاربها، فسبوه وصرخوا بالتليفون، قائلين: "ودتها فين يا مجرم ؟"

اتصل بجيرانه وباعة السوق، سخروا من جهله مكان امراءته، سمع نبرات غاضبة وقاسية، لكنه لا يتذكر من هدَّده قائلاً: "هنبلغ البلدية بجرائمك يا ديوث!!"

جلس وحيدًا يسترجع ذاكرته ليفهم ما حدث، شعر بأعماقه المتناقضة تنتفض، فبكى معتذرًا، ليس لجهله معرفة مكان زوجته، ولكن للكلمات التى تفوه بها لسانه على مر السنين، ونبرات صوته الخشنة التى سخرت من مطبخها وملابسها، وعجزت عن تلبية رغباتها بدعوى تعب النهار وهدته، وتحملها معاشرته للأطفال بدورات المياه وبيوت العبادة.

عاد لنفسه مرة أخرى، قائلاً بأسى: "بس مفيش حاجة حصلت تدفعها لترك البيت وسرقة الأطفال! "

قرر النزول للشارع مرة أخرى علَّه ينسى، حين ترَّجل أمام باب المنزل، تيقن بأن الجميع علم بالخبر، نظروا بخبث ناحية عيونه كأنهم يعرون جسده، ورغم ذلك لم يشعر بمصيبته ، إلا حين اصطدمت قدماه ببضاعة "زخارى"البقال، فصرخ المصرانى فى وجهه قائلاً أمام الجميع: "يا أخى غور فى داهية بقى، شوف مراتك بتروح فين؟!"

ظل يُحدِّث نفسه بابتسامة ساخرة، تجاوز البضائع المتناثرة تحت قدميه، داس على حجارة الشارع ، وتقدم عدة خطوات، وفى لحظة فارقة ألقى بكل قوة مفاتيحه، وتليفونه، ونظارته، ومحفظته الصغيرة والكبيرة في الهواء، وبقوة لم نتعودها أمسك قميصه وشقَّه حتى الذيل، ظهرت ضلوعه بارزة مخيفة، وانشق الفجر من بين أسنانه، ليصرخ بكلمات غير مفهومة.

شاهدت بقعة ضوء تقف فوق رأسه، أرسلت إشارات غريبة تجاهنا، كأنها تحذرنا من السير باتجاهه، أفقدتنا الذاكرة فعشنا حائرين للحظة، ظل الجار أسير بقعة الضوء لتقوده بخفة الي مصيره، هرول بعيدًا مناديًا على زوجته وأولاده "يا "مهجورة" أنتوا فين يا عيالى؟"٠

استكمل الناس وسط الشارع المتلألئ بأنواره البهية حياتهم،عادوا لممارسة أعمالهم، كأن من الطبيعى أن يفقد الناس عقولهم.

زجرنى "مفجوع"، قائلاً: "كله منك يا بن الخرفانة "، لم أرد عليه، فاستكمل: "فيها إيه لو فتحت قاموس والدك، وحذرتنا من المصايب اللي هتدمر حياتنا ؟" اقترب منى "سكران" قائلاً: "يا "منسى"يا خويا، ابوك صاحب المكتبة، قال كتير عن دورك"، واستكملت الخضرية بأسى: "الوفاء بالعهد، زى الشهادة فى سبيل الله".

يطالبنى "مفجوع" الآن بالعودة بعد إنجاب زوجته "مرزوقة" ولدًا صغيرًا، يؤكد الجميع أنها اشترته من بيت القوادة، يعرف الطعمجى ببصيرته أن الولد ليس من صلبه، لكنه يستكمل حياته مخاطرًا بكل شيء، سعيدًا بطفل لقيط.

ينسى الحزن الذى أدخله بقلب "مرزوقة" طوال السنين، ناظرًا إليه كل ليلة بغل قائلاً فى صمت: "يا عاقر"، تخيل أن تعاويذ أبى هى التى حققت طموحه، فعاود توسلاته لدفعى لطريق مرشدهم الميت، علَّ ذلك أن يخفف الحزن عن قلبه.

الغريب أن "سكران" الذى حرضه "مرعى" يومًا ما لحرق المكتبة وقتل والدى، تحول لعربيد بعد طرده لزوجته الجديدة وبناته الزوانى من حياته، عاش وحيدًا بالمنزل آملاً فى ظهور امرأة جديدة تعطى لحياته معنى.

استكمل حياته عاشقًا لفروج النساء العوانس والمهجورات، لدرجة أن "الداية"استغربت صمته عند مرورها من أمام المقهى، فوقفت وسط الشارع وقالت بصوت عالٍ: "القمر سكران ليه النهاردة؟"

تمكن من قلبها بعد رحيل والدى، حوى "الجنون الزرق" عليها، لتسمح له بمعاشرتها ليلة اكتمال القمر، آملت بنبض جديد يتفتح فى قلبها، ويعيد لعقلها ذاكرة الأنوثة، شافيًا روحها من الجفاف والبوار.

استعاد القهوجى كلمات أبى واستسلم لحياته سعيدًا بالذهاب كل جمعة للصلاة وسماع حواديت الخطيب عن النار والجحيم والشيطان وأمنا الغولة، لكن روحه انقسمت بين تعاويذ أبى ورعب الجحيم وأفخاذ النساء العطشانة.

دون أن أدرى جال بخاطرى هاجس غريب، فقلت لنفسى مذهولاً: "الأمر ليس صعبًا، سأجرب حظى الليلة، مستدعيًا نور الملكة الجميلة، التى جلست بحجرة أبى ليلة كاملة وهو يبكى، طالبًا منها الغفران والسماح لأهل الحى التائهين ".

لكن كيف سأهجر أحلامى بالزواج والإنجاب وأهتم بالتواصل فى الليالى الطويلة بعوالم الغيب والملأ الأعلى؟!

وسط أحلامى وحديث الباعة، عاودنى الحزن لفقد "مهجورة"وزوجها، فقلت لنفسى بصوت خفيض: " الملكة الجميلة سوف تعيد النور لقلبى وتملأ أرواح الغائبين والموتى بالرضا"؛ فجأة هطل المطر على الحى، نظرت للسماء والبيوت التى اغتسلت، فأحسست ببكارة الكون، فاستكملت سيرى وحيدًا !

"شفرة"

أطير بلا هدف، باحثًا عن شئ مفقود، الغربة تمزق أحشائى والأسى يفرم روحى، لكونى مخلوقًا وحيدًا، دون أمل أو إشارة طردنى صاحبى قائلاً: "انتهيت منك "غادرت مكسورًا إلى مجهول لا يعرفنى.

كان من المستحيل رفض طلبه، وتغيير مصيره، تركته يتقدم للنهاية التى خطَّتها الأم القديرة بلوحها المحفوظ، قلت لنفسى: "يجب رؤية مهجورة"، التى تمردت على حياتها، واضطرت للهروب بأطفالها من وجه الجربان الميت.

لمحت عيون بهيتى، كانت مشغولة بدفع "مهجورة" للتقدم لتجاوز أزمتها، لن يمكنها سماعى أو الإحساس بوجودى بعد طردى من أعماق قرينى "منسى".

أحيا دون ونيس، أستكمل طريقى دون رفيق، يا حسرتى على الألم المتدفق من أعماقى! أحس بالنار تملأ جوفى والتى يمكنها حرق الجميع، أبتعد عن سماء الحى خائفًا على أهل السوق من اللهب المتدفق بشرايني، أرتمى سريعًا بالمياه الهادرة، فيزول الشر بعيدًا.

الصمت يقتلنى، فأتحول لشجرة كبيرة وارفة، بللت أوراقها مياه المطر، وغرقت الأرض من تحتها بالمياه، عم السكون على الدنيا، فتحولت الي بذرة نعناع، تنشر زهورى رائحة منعشة وسط الفضاء، فيتفتح الكون من جديد.

أتحول لمحيط تداخلت أمواجه وارتفعت مياهه ، وصل حزنى إلى أعماقه البعيدة، فغرقت سفن وطُمِسَت صخور وجزر بمن عليها .

لا أستطيع السيطرة على نفسى، يتدفق قلبى بالغضب كالأمواج الهادرة، أجلس وحيدًا، وأغرد كعصفور حزين، يخرج صوتى من أعماقى كالنحيب، تموج بخاطرى صورة صاحبى الذى عشت بأعماقه.

انهمر المطر الغزير على الكون، فتذكرت قدرة الربة الغالية التى تعلم ضعفنا، فتمنحنا الراحة بعد العذاب الذى أظلم حياتنا، آه من الثمن الذى ندفعه للغربة والنوم دون سؤال أحد عنا! لكن لا يهم كل ذلك الآن، يجب التحول لطائر يجوب الكون باحثًا عن الأم الجليلة!

أحاول صنع أجنحة متخفياً فى الضوء، لكن الدم الأبيض ينزف من ريشى فيعيقنى عن التحليق، أفشل وأفشل بسبب جروح قريني وهجران محبوبتي.

لكن الأم البصيرة لن تتخلى عنى، ليس لى مكان بعد طردى إلا رحمتها الواسعة، أتخيل نفسى طائرًا كالنسر أجوب الكون، أتذكر الآن، لماذا لم يتمكن قرينى حتى فى أحلامنا أن يتحول لفراشة، رغم معرفته بسر التحول؟ فجروح الحبيب يجب أن تقطر دمًا لا حليبًا.

أحُطُّ على بحيرة ساكنة وأبكى، تغمر الشواطىء المياه، أنام على "الشط "، متذكرًا أحلامى، القهر يفتت أحشائى، أفقدتنى قسوة الظلام نور بصيرتى، وتركتنى حائرًا فى عالم فسيح، جاهلاً طريقى.

حرقنى قرينى رغم الحب والسعادة اللذين تمنيتهما لروحه، تركنى بقسوة ليستكمل حياته بعيدًا عنى، ابتعدت لرغبته الدفينة فى التخلص من مشاعره، باعتبارها سبب شقائه.

أحس بطيف "صديقتى" يهرب من الحى بمرافقة "مهجورة"، قطعت دون أن أدرى خطوط التواصل معهما، باعترافى بالحقيقة التى يعلمها الجميع.

نعم هالهم ضياع الحديقة للأبد، اعترفت لمدهم بالأمل للبحث عن أشجار وزهور أخرى، نكرونى غاضبين وغادروا لمكان مجهول، أحس بأعماقى البعيدة تمدنى بالنور صارخة فى روحى: "ستجد صديقة أخرى، سيضمك حضنها المبهج، ستعلمك طرق السير من جديد لتتخطى كل المراحل بسلام، ستحذرك من الحيات والشياطين والغيلان، ستقويك وتملئك بالحب والسلام ".

لكن الحقيقة أن الحديقة حُرقت عن بُكرة أبيها للأبد، ليس علىَّ إلا الانتظار والمدد من القديرة التى تحن علينا برائحة جنتها المملوءة بزهور الجنة، نعم كانت رائحة أشجار الصفصاف وسط الحشائش خلابة، لكن الام تستطيع خلق حدائق أخرى تبهج أرواحنا زهورها الناعمة المختلطة بمسحوق الرقة.

الحزن يمزق أحشائى، الدموع تملأ عينى، لكن الحزن مكتوب على جبين البشر، سأعتبر "بهيتى" إنسية وماتت مع جارتها، سأقيم عزاء تستحقه وأصوم مائة عام عن رؤية الأصدقاء وزيارة الحدائق، سأضع خنجرًا فى قلبى آلاف السنين حزنًا عليها.

تفجرت على حين غرة من حولى بحور الدم ، غوصت فيها بروحى و"كيعانى"، الدم الأحمر يختلط بالسواد الذى كاد يخنقنى، أصارع الموت لأخرج مبتلاً عن آخرى من البركة .

الآن أصبح لى هدف، بكل إرادة وعزم انطلقت روحى فى نور أمنا التى جالت بروحى كطيف، فحدثت المعجزة وتمكنت من التحول لهدهد بنى رشيق، أمطرت السماء فأزالت الدم من على ريشى ومنقارى.

فردت أجنحتى، طرت بعيداً كى يظهر شعاع الشمس من جديد على الأرض ، غردت آملاً العثور على منبع نورها، فابتسمت وتراقصت أوراق الشجر مع نغماتى الساحرة، واخترقت أبواب السماء الأولى والثانية دون تعب أو ضجر.

الحب يملأ أعماقى من جديد، أطير وأغنى باحثًا عن نور الام الغالية التى مدت الجميع بالحب ونكروها، لم يعد بذاكرتى مشهد واحد لقرينى، أنا الآن منتشٍ بعالمى الجديد، نعم أطير كيمامة لأبواب السماء العاشرة، أتجه بكل جوارحى والسعادة تملأ كيانى نحو جنة الريحان، فالربة الطيبة لا يمكن أن تعيش إلا فى هذا النعيم.

"غربة"

أمسك "هوسة" سكينًا محاولاً قطع لسان ابنته الكبرى، صرخت الخضرية بصوت عالٍ، قائلة: "زوجى رجع يا ولاد، زوجى رجع والله العظيم!!"

جرتْ مسرعة ناحيته وأخذته فى حضنها، قائلة: "ميهمش لسانك أو لسان بنتك أو حتى لسانى، المهم أنك رجعت يا خويا، المهم أنك معانا"، ضغطت بصدرها النضر على قلبه، آملة بعودة وجهه البشوش بصرف النظر عن العقل أو الذاكرة أو الحواس الميتة؛ إذ لا يهم أى شىء لامرأة مهجورة حيال زوج عائد.

توسطت "زوبة"العامية جمعًا من الفتيات وذهبن يتحسسن وجوه المارة، ويفتشن بأرواحهم عن الكنز المدفون.

سارت أمامهن امرأة عجوز تدعى "أم النسيان"، نادت بقوة على الباعة ليتوقفوا عن الفصال، ويسلموا للصبايا بهدوء قلوبهم، احتضنت الفتيات العيون المرتبكة، وأشرن بإشارات غريبة تدل على الفشل فى العثور على الإحساس.

وضعوا القيود الحديدية فى رقبة "فجر "وسحبوها ككلبة، صرخت بوجهى قائلة: "ألا تتذكرنى؟" رددت قائلاً: "أنتِ صاحبة بيت الفواحش الذى يقع خلف المقهى "، توسلت لأصرخ فى العميان مُظهرًا هويتها.

يحكى الجميع عن خروج الداعرات من قبو "فجر"، رافضين النوم تحت أفخاذ الرجال، خيطن فرج القوادة بالحبال، وربطنها فى السلاسل، وانطلقن يبحثن عن رائحة رجل مازال يحوز في إحساسه روح البكارة، ليلتهمنها معتقدين أن القلب البكرى سيعيد لفروجهن الغطاء الذى فضه الرجال قساة القلوب في الليالي المظلمة.

تقدمتهن "أم النسيان" عميدة المهنة، والتى جاوز ممتطوها مائة ألف رجل من كل الأعمار والأجناس، سافر عشاقها بالشهور لينعموا بحضنها ولمسة يديها، وفى اليوم الأخير دخلت على الرجال قساة القلب وأكلت خصيانهم وشربت كل الماء الدافق بعروقهم.

صرخت فى الصبايا العميان، فخرجن وراءها باحثين عن الإحساس ، لكنهن فشلن فى الحصول على المراد.

بحثن بكل الشوارع والحارات، فتحن قلوب الجميع وعقولهم، دخلوا بأرواحهم شغوفات بمعرفة مكنون سر الذكورة الذى ميز بين أفخاذهن عن سائر نساء الأرض، سحبن القوادة من رقبتها كدليل على براءتهن، ورحلوا إلى المجهول، آملين الحصول على قلب رجل واحد، مازال ينبض بالاحساس.

قلت مودعًا قلوبهن في اسي: اتركن قرينة روحى وحبيبتى "زوبة"، اقتربت "أم النسيان" منى وتحسست قلبى بيدها قائلة: "أمامك الكثير يا "منسى"، أمامك الكثير يا ولدى".

سمعت أحد الأغراب وسط جمع غفير يحكى عن "مهجورة" كأنه يعلم سر الهجر قائلاً: "نعم رحلت زوجة الجربان، لزيارة قبر والدتها".

استكمل قائلاً والجميع يحيطه بالصمت: "بعد أن أخذت سلة الكعك، واطمأنت على حضور السائق الذى ركن سيارته بعيدًا عن المنزل، صعدت للشقة مرة أخرى لتوقظ أولادها، خلال تلك اللحظة كان الجربان مايزال يبحث عنها بالحمام والبلكونة، حينما عاد للصالة كان كل شىء قد أُعِدَّ ليدخل النفق ويرحل بلا عودة لأعماق أعماقه المظلمة".

"رحلت "مهجورة" للمقابر لتزور جثة أمها الميتة، لكن زوجها لم يتذكر كل ذلك، مؤكدًا فى تليفوناته على هروبها، ومع ذلك نزل السوق ليشترى العشاء، وحين عاد ولم يجد أحدًا، جُن جنونه، وبالفعل لم يدله أحد من جيرانه على سفرهم للمقابر البعيدة ، لأنهم اعتقدوا أنه يدبر مكيدة لقتلها بعد اكتشافها سر هيامه بالأطفال، والشىء المثير أن الناس تعودت زيارة المقابر نهارًا، لكن "مهجورة" كانت تعلم المسافة الطويلة التى ستقطعها السيارة للوصول لقبر أمها، رتبت كل شىء بدقة لتضمن تحقيق حلمها، بدخول المدافن لحظة شروق الشمس".

أسئلة وألغاز كثيرة رددها جمع الناس عن رحلتها بجنح الليل دون علم زوجها، واختلاء السائق بها ليالى كثيرة أثناء معاشرته لأطفاله بالحمام.

ظللتُ سنينًا أسمع من ضلفة الشباك المفتوحة على المنور الضيق لشقتى، أروع كلمات الحب التى تقدمها امرأة لا ترغب إلا فى عبادة زوجها، وتهجرنا فى النهاية دون أن يشعر بها أحد.

جاءنى إحساس غريب بأننى فقدت العقل ، إذ كيف تقع كل هذه الأحداث والناس مازالت تملأ الأسواق ولم يتأثر أحد برحيل خلانة؟! طبطب الجميع على ظهرى مستغربين أسئلتى، قائلين: "ارجع يا "منسى"، ارجع يا بنى، علشان نتصل بحبايبنا".

تكلموا بحميمية، محاولين إظهار كرمهم، متجاهلين ما آل إليه الحى، كأنهم يتحدثون بصوت أبى الطيب، قائلين: "لا يهم أى شىء، لا يهم حتى العثور على القاموس، المهم أننا مازلنا موجودين، فقط عليك الخروج من عالمك الضيق لتنال الانسجام بين عالم الغيب وعالمنا، حينئذ ستتزوج "زوبة"وتنجب الأطفال وتدير حياتك برضا، دون أن تحس بالشقوق التى تقسم روحك "، لم أهتم بنبرة أصواتهم الغريبة، وسرت وحيدًا للمجهول، غير عابئ بالعقل أو الجنون.

نعم يعيش أهل هذا الحى وسط منازل، وأسواق، وحوارٍ سد، وضجيج، وحرائق، وعناد، وطفشان، وغربة، وصمت، ويأّملون عودتى لمدهم بالنور دون أن يصنعوا شيئًا يحفزنى ، على

العكس يعتقدون أن المنازل التى يحيون بداخلها هى الجنة الموعودة، لاستقبال أطفالهم وزوجاتهم عودتهم اخر النهار، محملين بأكياس الطعام والخبز.

قابلنى "مهياص" حزينًا، طبطب علىَّ والأسى يمزق قلبه، أخذنى بحضنه قائلاً: " "هوسة" أخوى رجع من الغربة، فاكرينوا محمل شىء وشويات، رجع ساكت، قطع لسانه ولسان بنته، فتنازلت"لتحية"عن نصيبى فى البيت والدكان، ارجع يا "منسى" لعقلك مفيش حاجة تستاهل ياخوي "، لم أرد عليه، وسرت مستكملاً طريقى .

أنهار كثيرة لم ترها عيناى تجرى فى دمائى وتبحث عن محطات رحلتى الأخيرة، فقدت شعورى بالحياة بعد رحيل والدى، لم يحدثنى قط عن أمى حتى لا يجرحنى أو يذكرنى بحنانها.

أدخل بعيون أمى الحنونة رغم سيرى وسط السوق، فيتسرب نور روحها الطيب لأعماقى، إذ لا يهم أن تشاهد عيون المحب حتى تحس روعته، فيكفى أن تشعر فقط بضيائه وهو ينير أعماقك، لتندب بحرقة بعد رحيله على فقدك روح الحياة.

حلمت كثيرًا بأسرة ومنزل أعود إليه بعد رحلة النهار، تنتظرنى على بابه الأم والزوجة، يضحكان فى وجهى ويُغَيِّران حديثهما السرى لرؤية العيون السحرية لملاكهم.

أتذكر وجه "زوبة" بليالى العشق حين اقتربت من قلبى قائلة: "تجرأ يا "منسى"، فليس أفضل منك من يعاشرنى، ويقتل الروح بداخلى"، كأنى أسمع صوت والدى مستكملاً حديثها بقوله: "تقدم يا سليل حى الظلام ، تقدم فالجميع ينتظرك وسط سنترالك، ليعاود الاتصال متجاوزًا ذل الشماتة والحسرة والهذيان، تقدم لتنال السر الذى يعيد لأعماقك الحب الذى فقدته بالجبر والرضا".

مُنيتُ بحسرة دائمة لفقدى حنان الأم الذى يملأ حياة الناس، قاومت كثيرًا هذا الإحساس، معتقدًا أن روح الأم واحدة فى كل المنازل، لكنها لم تدخل منزلى منذ وعيى بالحياة إلا ميتة، لا يهم، فمشاعر جيرانى وباعة السوق ووجوه النساء العجائز، تكفى للإحساس بانطلاق روحها لأواصل رحلتى.

يراودنى نور كائنى المنير وهو يلازمنى ليدعمنى ويرشدنى للطريق، كان يتعذب فى منامى ويقظتى، دون أن يرأف بحالى أو يقول كلمة وداع أعتبرها سندى، غادر هو الآخر بلا رجعة.

اختفى من حياتى بناء على رغبتى الشريرة، أتذكر نوره يوم فقدانى، كانت ملامح وجهه بريئة، يختفى ويعود وهو حزين. أحسست يومها بأنه كائن رقيق تعذب معى لأخرج من ظلام الحى.

أتراجع ببصيرتى، وأتوه فى الحاضر الغائب بعيونى، نفس الوجوه المملوءة بالحزن، نفس النبرات والعيون والحواس، كأن آلة الزمن توقفت فى عقلى.

استمر فى الهذيان والسير، تقابلنى تحية والأسى يمزق قلبها من الغيبوبة التى دخل فيها هوسة، زاد حملها بزوج عاجز، فاستسلم جسدها لمداعبات سكران، وقبلت الاختلاء به فى شقته لرى فرجها الشرقان.

تخرج وسط الحوارى السد المملوءة بالقمامة ، كأنها بقلب الموت الأسود متوجهة لشقته المظلمة، تدخن معه الحشيش، ويسرح بها فى عوالم الشياطين و"الجنون الزرق"، تحس برحيق قلبه المحروق، فتندفع وراء نشوته مطلقة العنان لجسدها، فيقذف سكران فى فرجها، مشعلاً النار فى روحها، تقوم من تحته بسرعة، لتلحق بفرشتها وزوجها وبناتها الصغيرات.

حين اشتمت بقلب القهوجى نظرة القواد، رفضت معاشرته، فى هذا اليوم فوجئت بوجود "حمدى"السائق بالشقة، طلب"سكران"منها مداعبته لحزنه على هروب أخته الوحيدة من الحى، لم تفهم المرأة سر تحوله المفاجىء، جرحها برفضه احتضان قلبها، وتخفيف الأسى عن أعماقها كامرأة مكتملة، وعرضها بجبن على رواد مقهاه، استجمعت قوتها وواجهت خسته ونقصه وخرجت من شقته، مقررة الصيام عن رغبات الجسد أبد الدهر.

حين طلب "سكران" من "صبرة " معاشرة الشيخ "سعودى" لقسوة "مخروقة" أخت القوادة، بكت الداية مسترجعة روح صاحب المكتبة الذى شفى جسدها من التلذذ ببول الرجال، استسلمت "صبرة"لمصيرها بعد رفضه الرد على تهكمها أمام المقهى بالشارع، وقررت علاج ابنها "حسن "من الذهول، بحثت بقلبها عن صبية طاهرة تدخل الحليب والنور لروح ضناها العزيز، ذهبت للمنزل مملوءة بالأمل أعادت تعاويذ أبى على عقل ابنها المصمت، انتشى وتحرك لسان "حسن"، قائلاً: "أمه ...عايز اشرب ".

بلحظة فارقة نسى عقلى الخضرية والداية والطعمجى والقهوجى، ودخل بروحى طيف غريب، فتناثر الماضى فى ذاكرتى، كأن عقلى يستقبل إشارات بعد أن يخلطها ويشفرها ويقذفها لقاع أعماقى، يسترجعها من جديد، كأنها مولودة جديدة يمكنها ترتيب العالم، شاهدت من بعيد حدائق السماء ببيوتها الخشبية تقترب من روحى، تمنيت الوقوف بشبابيكها البعيدة والنظر من هناك على شوارع الحى ومنازله.

ذكرتنى اللحظة التى تجرى فى عقلى بحلم قديم عجزت عن تحقيقه، قلت لنفسى بثقة: "سأعود آخر اليوم إلى شقتى، وأفتح الصندلة، وأرتب حجرة أبى كما تركها يوم موته، كل شىء يجب أن يوضع بنفس الزوايا، الكنبة الصغيرة، منقد النار، مساحات البراح فى الأركان المختلفة، قوارير الماء، أصيص الزهور، إبريق الفل الحامض، الأحجار الثمينة والمحارات".

دخل الأمل لقلبى، تدفق بروحى، تذكرت وجه أبى ليلة قمر الحصاد وهو يقول: "حينما تغرق فى بحر النور، سترى الدنيا من فوق السماء العاشرة، ستشاهد بداية الأحداث ونهايتها، ستقرأ الطالع وتفهم خبايا اللوح المحفوظ، فقط عليك ملء أعماقك بالحب لتغير مجرى حياة الناس، تواصل بالإيمان مع المخلوقات لتفهم اللغة المشتركة التى تعينك، وتبث البهجة بروحك غير عابئ بالأحداث".

تركت ذكرياتى وأحلامى ووصايا أبى، وتوجهت للسنترال بناء على رغبتهم جميعاً، رفعت الباب بقوة ليصدح بصوته "دش... دش "، معلنًا عودتى وسط دهشة عيون وباعة السوق.

"حيلة"

يبادلنى السكون الصمت، يعلو صوتى طالبًا الشفاعة، أصرخ على آلهة المطر والنماء والغابات لينجدونى، يبادلنى الصمت الحديث ويقول : "أنجُ بنفسك واسلك طريقك ".

أنظر فى الاتجاهات الأربعة، فتزداد حيرتى، أسمع صوت أعماقى: "أى طريق يوصلنى لجلالتك ونورك؟" تهطل السماء ، وتصدح موسيقى الغابات، وينشق القمر ، فأرى نورها الخلاب.

أجرى ناحيتة غير عابىء بأشواك الطريق، لكن الحية بنت الشيطان تقطع الطريق على روحى، وبلحظة فارقة أستعيد قوتى وأدخل يدى فى أحشائها فتحترق، واتحول بفعل إصرارى مرة أخرى لنقطة منيرة.

انفتح الطريق أمامى وواصل طيرانى غير عابىء بدماء ريشى الغارق فى بحر المطر.

يصرخ السكون: "صوتى طريقك، عيونى أملك، رغبتى حبك، جناتى ملكك، اسمُ بروحك، واقفز فى بحر طيبتى، لتنال سلامى".

انفتح الطريق وانتشرت نبات الحب، وامتلئت روحى بنور القديرة، جلست برهة متأملاً حالى، لكن الخير الكامن بأعماقى دفعنى للقفز من السماء العاشرة، متحولاً الي فراشة .

توقفت فوق حى يتشاجر أهله وسط العشش، قاذفين بعضهم بفوارغ زجاجات الخمر، الدم المتطاير من جباههم يملأ الأزقة، أحس بأرواحهم المفارقة لأجسادهم المعذبة تنادينى، أندفع بهالتى المنيرة مخترقًا صفوفهم، ادخل بعقولهم، فيتدفقوا جماعات جماعات وراء طيفى، متناسيين صراعهم على الموت، ويدهسوا الغيلان.

تحول ظلام العشش لنقاط مضيئة مملوءة بالعيون الساطعة بالأمل، تظهر أعماقهم الرقيقة الحب، يتبادلونه لثوانٍ، فتنطلق روائحهم المنيرة للفضاء، ملأ قلبى الامتنان كأننى بجنة الريحان، فقلت لنفسى: "أستطيع الأن ان أبهج الدنيا كلها ".

يا له من عمل رائع! ، بمجرد أن يروا المحيطين وجهك المبتسم كطائر، يرجعون عن الشر، كأنهم خُلقوا من رحيق بحر الزهور.

لا تتردد فى تخيل نفسك فراشة أو شجرة أو نجمًا أو قمرًا أو وردة، ستحس مثلى بطعم الحياة المتدفقة فى أعماقك، فقط لأنك تمكنت فى لحظة سكون من الاندماج مع ارواح الكائنات، فامتلئت بصيرتك بالنور وتسربتالبهجة لعيونك.

يمكننى الآن الذهاب لحى الظلام وملء قلوب الجيران والباعة بنورى، لا يهم أن "منسى"طردنى، لأننى أبغى تطهير قلوب الجميع، سأتحول لهدهد مغرد يبهج روح من ينظر لعينيه الناعمتين، ويمكنه بنظرة واحدة أن يملأ أرواح أهل السوق بمشاعر الأخوة والتآلف.

سأبدل عيون النساء الحزينه ، وأجعل قوتى تنتقل لبصيرتهن ليتحولن لملائكة مخترقين أعماق الرجال العوانس، سأعود للحى دون مقابلته، لا أرغب فى الإحساس باستيائه من رجوعى، أحتاج فقط لسماع كلماته الرقيقة الممتنة : الحب منتهى القوة يا منير.

أحس بصدى صوت الأم يصدح: "يمكنكم أن تبقوا أرواحكم مغمورة فى السلام مستمتعة بفضائى، متآلفة مع نورى، لكن إياكم رفض وصاياها، لا تطردوا النور أبداً من حياتكم، لأن فقد الإحساس يعنى دفنكم حتي ولوكنتم علي قيد الحياة ".

سأعود لروحه وألبى رغباته، وأساعده فى شفاء جروحه، سأعود لتلمس طيبة قلبه، وادفئ نظراته ، سأنير طريقه، وأدخل الطمأنينة الي اعماقه، وأساعده ليغمر روحه الأمل.

أرفرف من جديد على الكون ليغمرنى النور، أتذكر كلمات أمنا يوم سألها المنذر الجبار عن الحكمة فى وجودنا، قائلة: "نقاط الضوء هى الإحساس، الذى يعيش بداخل الكائنات ليمدها بنهر المشاعر، ليستكملوا نشر رسالتى، هم شعاع النور الذى يزرع الرقة ليعيد خطوط الحب التى تمزقت على غير إرادتهم، لتمتلىء أرواحم من جديد بالسلام ".

كأننى مشارك فى احتفال مهيب، أنتشى وأمارس هويتى فى التحول، أحس باندفاعى فى أعماق منسى منبت براءتى، أبكى محترقًا لغيابى وهجرى، لكن حلمى بملاقاة الربة ، دفعنى لمواصلة الطريق الواعر، غير عابئ بالمخاطر.

أسمع نداءها هامسًا: "تأملوا أعماقكم، لتعيدوا الدنيا لروعتها، والجبال لصلابتها، والبحور لزهورها، والأرض لريحانها، اذهبوا معى إلى الشط ليغمركم نورالقمر، يا معشرالكائنات الحية والساكنة! لا يمكن أن يردع قلوبكم شىء سوى الحب، والإحساس برائحة القرين، لا تخافوا أبدًا من السلام المندفع لأرواحكم كالماء الهادر من فوق الصخور العالية لينير بهاء طريقكم لأن قلب قرينكم من روحى وضياؤه من نورى ".

أطير برشاقة فوق شط النجاة، الحوريات تبتهج من حولى، الكل مشغول باستقبالى والاحتفال ببلوغى ليلة قمر الحصاد، أغوص فى بحر السعادة لرؤية وجه "بهية" وروح الجارة "مهجورة"، يجلسن وسط جنان الربة الحليمة متلحفين برائحتها، رفرفت عيونهما المغمورة بالعشق من حولى، استقبلانى مع الحوريات ، وقالا بأمل: "حديقة الجنة واسعة يا "منير" وتسع من العاشقين ملايين".

شاهدت نقاط ضوء مبهرة تحيط ببهية، أشارت صديقتى من بعيد على روحى لأندمج معهما فى لحظة الرضا، قال ملاكها الجديد: "أنت صديق "بهية "الجميلة "، أحسست بروح الجارة المغمورة بالسلام، فانتشيت لسعادة الجميع.

الامتنان يملأ روحى لسعادة حبيبتى فى مجالها الجديد، أشعر بالرضا وراحة البال وامتلاء روحى بالخير، أركع أمام محراب الأم الرحيمة خاشعاً متلمسًا غفرانها وتسامحها على ذنوبى، الدموع تجرى كالنهر فى أعماقى، تطهرنى من آثامى، أسمع حفيف الأشجار، أتلمس سكون مياه البحيرة، فأركع أمام باب عزتها مؤمنًا بسمو جنتها.

يندفع النور مرة أخرى، فأرى الجميع متدفئين بالحب مغمورين فى النعيم، أنتشى مبهورًا بسحر رائحتها، أتشمم رحيقها السامى كأمل أخير، تسحرنى طلة عيونها وتمدنى بطاقة التمادى، يمكننى الآن نقل الأرض لمجرة أخرى فى لمح البصر، يمكننى الطيران بروح صاحبى لقصر جلالتها العالى، ليمتلىء بفيض مشاعرها المتدفق بالرضا والسلام.

"جـاى"

عندما سمعوا صوت الباب يصدح، شاهدوا شخصًا آخر يعاود عمله، متجاوزًا المحن ، نظروا فخورين داخل السنترال موقنين بنضج أعماقى.

تكالب "سكران" و"مفجوع "وباعة السوق لترتيب الكبائن وإصلاح ما أفسده الدهر، رتبوا المكتب الصغير، وكنسوا الأرضية ونظفوا الأركان، جربوا خطوط التليفون، وخرجوا فى رضا، تاركين جارهم يمارس عمله فى سلام.

دخل موظفو البلدية ليأخذوا مقابل استهلاك الكهرباء والتليفون، دفعت الفواتير والمبلغ الإضافى ليتركونى ، دفعته بناء على نصيحة الباعة، كى أَمُرَّ من بينهم دون ان يجعلونى عبرة "كأحمد عز "الذى مزق رصاصهم جثته.

كدت أنادى على "سكران" ليحضر فنجان القهوة السادة لأستكمل يومى، وكأن تفريغ جيوبي شىء عادى، وبلحظة فارقة ودون تفكير خرجت من باب السنترال فاقدًا الإرادة، وصرخت بأعلى صوتى، تجمهر الناس من حولى، وفوجئوا مرة أخرى بخروجى عن المسار الطبيعى ، انتفضت قابضًا على رقاب موظفو البلدية ، مصرًا على إعادتهم مبلغ الإتاوة.

طالبنى الجميع بالتراجع، قائلين بصوت واحد: "لا أمل فيما تفعله، فالجميع اعتاد الدفع "، فتوعدنى موظفو البلدية بالتحقيق فى الجرائم التى ارتكبتها في الماضي وتغاضوا عنها، ذكَّرونى بمعاشرة زوجة جارى بالمطبخ، وتسجيلى نبرات وأصوات أهل السوق.

انتفضت مرة أخرى محاولاً خنقهم، اختفوا سريعًا من أمامى، فارتميت على الأرض والحسرة تملأ قلبى صارخًا ، التفوا الناس من حولى، وتسمرت عيونهم على جثتى العاجزة، وسمعت رجلاً غريبًا بينهم يقول: "لا أمل فى علاجه، ارتكب الجرائم بنشوة ، وسمع الذم وقبله، ووسخ روحه بقذارة الخرابات، لا يمكن إعادته ابدا لطريق الخير."

انهار جسدى وحواسي تبعثرت ، وصرخت أسبُّ البلدية والصبية الذين رفعوا الشماريخ والسواطير وأطلقوا الرصاص فى وجه "محمودة" ابنة إمام الجامع.

تركنى أهل السوق أصارع الأشباح وسط دائرتهم، وأتقلب بينهم كالفرخة المذبوحة، الدم ينزف من جسدى وأنا فى كامل عُريى أصرخ ، تركونى أتعذب لأنظف أعماقى من الروث الذى يملأ حواريهم.

ظلوا صامتين مدفوعين بمشاهدة المزيد من مرمغتى، ساردًا تفاصيل حياتهم فى شجاعة، أتقلب بجسدى يمينًا ويسارًا غير عابئ بأكياس القمامة أو رائحة القذارة التى تملأ الأرصفة، تُلامس فقرات ظهرى حفر الأسفلت، فأحس بدق المسامير فى ضلوعى، أرفع أقدامى، فتحترق عظامى بنيران ملتهبة، وتتدشدش فقراتى، أرفع رأسى عن الأرض فينتقل الألم لجمجمة رأسى

شارخًا مخى، أسمع صوتهم دون رؤية وجوههم، أتقلب يمينًا فأرى وجوههم ولا أسمع أصواتهم، الجنون يفتك بعقلى.

سمعت الغريب يستكمل بصوت عالٍ: "ضعوا منديلا بين أسنانه "، عاودنى البكاء والتعديد، علَّ صراخى يصل لقلب الأب الميت فيوقف الألم والحسرة بأحشائى، ارتفعت أيادى الرجال والنساء الملتفين من حولى للسماء تدعو رب العزة لشفاء جسدى وروحى من التمزق.

تذكرت يوميات الأب وانا راقد ، تذكرت الأم التى ماتت دون إرضاعى الحليب، أصرخ مناديًا عليهما، وأعيد قصة الجربان ومهجورة التى منحتنى جسدها البض وكادت أن تلتهمنى بالمطبخ، أصرخ دون أن يدرى أحد بالنار والدم الذى يغلى بعروقى، السكاكين تفتك بعظام صدرى وأفخاذى، أنادى بصوت عالٍ لوقف العذاب المستشرى بأنحاء جسدى: "جاى.... الحقونى ".

أعدت سرد مآسى "صبرة الداية وابنها حسن" و"تحية" الخضرية وزوجها هوسة، وعلاقتهم "بالسكران ومسعدة" الهاربة من جحيم الرجال، حكيت كل يومياتهم وهم يحيطوني مدهوسين من صوتي المنبوح.

ارتعدوا لذاكرتى التى تحوى تفاصيل نواقصهم التى أفقدتهم طرق الخير، أحس بأعماقهم تصرخ مشفقة ، ينظرون بحسرة تجاهى، خوفًا من المصير المجهول.

تمزقت روحى وجسدى، ولم أحس فقط بالانقسام بينهم بقدر فقدهم، انفصلت عن عالم السوق، أصبحت بقايا إنسان، انطمست هويته وتاهت وسط الوجوه، فقدت نفسى، فصرخت متسائلاً : "من يكون هذا الشخص الذى يتألم وسط دائرتكم؟ هل فقد أحدكم الإحساس بمشاعره مثلى، وكيف أعود مرة أخرى لعالمكم المخيف؟"

فوجئت "بمفجوع "يقترب حاملاً وجبتى المفضلة، طبطب على ظهرى، لامس وجهى بأطراف أصابعه، ليتعرف من أحاسيسى الميتة على نفسه، قائلاً: " كل يا "منسى"يا بنى ".

بكى الرجل الغريب قائلاً: "لا يهمك أى شيء، انسَ أعماقنا وروحك، فالجميع يرغب فى شق الهدوم، لكن الحيلة بنت الشيطان، دائمًا تدفعنا لمكان مظلم لا يعلمه أحد".

استكمل بأسى وهو يحكى عن النقطة المنيرة بحياتنا، قائلاً: "كيف أستغنى عنها، وهى النواية التى كانت تسند الزير؟!" سمعت صوته كأنه يقرأ بأذنى التعاويذ التى ستعيد الي روحى التواصل مع مشاعرهم وأرواحهم.

فى لحظة فارقة، تخيلت عودة كائنى المنير لأعماقى، مرتديًا ملابس العيد، متحسسًا ملامح وجهى، شعرت بنوره يقترب منى كأنى أولد من جديد، شيء رائع أن يعود قرينى والبهجة تملأ قلبه، فأغفر لنفسى وأشفق بحب على الجميع، متجاوزًا الشر الهارب من كيانى.

قمت من وسط دائرتهم، غير عابىء بوجوههم الباكية، تركونى بحالى وذهبوا لحال سبيلهم، جلست بجوار حائط بعيد، مبحلقًا فى عيون الغريب الباكية وهو يترجل بعيدًا.

كأن روحى ملبوسة بجنى أو حورية، أتخيل نفسى باحتفال أسطورى، يشاركنى كائنى المنير، ارتفع صوته ليهنئنى قائلاً والدموع تملأ عينيه: "أخيرًا نجحت يا صاحبى، أخيرًا وصلت يا صديقى".

استعدت ذاكرتى فجاءة ، فهرولت لشقتى كالمجنون، وبقوة غريبة صعدت للصندلة، معيدًا أكوام الكتب السرية، وبقايا الملابس وأدوات كاشف الخبايا وشافى جروح المحرومين، أقلب صفحات القاموس بنهم كأنى عالم بلغة الأرواح.

انطلق الشعور بأحشائى، غير عابىء برائحة الشقة ومشاجرات صاحب المنزل مع "مخروقة" زوجته التى غيرت عقود المنزل باسمها وطردته كالكلب الي الخرابة، واستحقت الأجرة وحدها بعد رحيل "مرزوقة" محسورة من قسوته.

أحس بكائنى المنير يغمرني ، كأنه قمر مضىء يسحب روحى للسماء، ما أجمل أن يكون لك كائن ينير طريقك، ويأخذ روحك للسكون!! فتتجدد حياتك، غير عابىء بالأحداث التى تملأ حياة البشر.

بسرعة البرق أعيد ترتيب غرفة والدى كما تركها يوم وفاته، أضع كل شىء مكانه، وأجلس أمام منقد النار الذى يرتفع لهيبه مرددًا التعاويذ التى يمتلىء بها القاموس لجلب روح الأم الطيبة.

أجلس صامتًا مستعيدًا سكون البحار، فجأة تيقظت أعماقى، وأضيئت بنور سحرى، تحول سقف الحجرة من فوقى لحديقة شاسعة، ارتفعت أشجار الموز والرمان والجميز والتوت والصفصاف على حوائط جدرانها.

وسط السكون الذى حلَّ على الدنيا، أشاهد جسدى ممددًا على بلاط الحجرة التى تحولت لبحر يصدح بألوان زهوره الندية، كأننى سفينة تتحرك بالمياه الساكنة نحو هدف تعرفه أعماقى، سرت كقبطان متمرس بالمياه الشاسعة، أبحرت شهورًا طويلة، أظلمت الدنيا فجأة من حولى، وازداد هياج المياه العاتية، قاومت مجدفًا بضلوعى للوصول لشاطئ السلام الذى تضاء جوانبه البعيدة بشموع المحبة.

لوَّح بشر كثيرون على الضفاف بأياديهم، متمنيين وصولى سالمًا، نادوا باسمى رفعوا اللافتات لتحيتى، مدونى بالأمل لملاقاة الربة الطيبة.

فجأة ظهرت أشباح مخيفة فى المياه الكاسحة، كادت تُغرق سفينتى، قاومتهم بشجاعة، تجاوزت بئرهم المفزع المملوء بحيات سوداء وغيلان متوحشة.

اجتزتُ الطرق الوعرة، تغلبتُ على كل المحن، فجأة تحولت المستنقعات التى غاصت أقدامى فيها شهورًا وربما سنينًا لبحور وأنهار عذبة، امتلأت عن آخرها بنور صافٍ، كأننى أرسو على شاطئ بحيرة ساكنة، أتحسس صوت مياهها المبتهجة بألوان السمك المتقافز والسابح على ضفافها فى رضا لامتناهٍ.

رست سفينتى على الشط، لوحن الحوريات بأيديهن سعيدات بعودة النور لأعماقى، ابتهجن هاتفات باسمى "اجمد يا "منسى"، كمل يا بطل "، انطلقت الزغاريد تغنى للابن العائد، تحسسن أطرافى وجسدى، فشعرت "بمنير "يملأ كيانى.

ظهرت الأم بتاجها المُرصَّع بالامتنان، فتدفقت أعماق متجددة فى روحى، أخذتنى بحضنها وبكت على عيون الإنسى الصبور الذى عرف وحده الطريق، ونال بكفاحه تاج محبتها.

زغرد الأبرار المبتهجون بوصولى مع قرينى، طالبونى بالسباحة حتى شاطئ الجنة سمعت صوتها الملائكى قائلاً من فوق السماء العاشرة: "ماذا ترى يا "منسى"؟ كنا فى وقت الغروب، تحولت الدنيا من حولى للون أحمر فاتح كالدم، اندهشتْ الكائنات لعودة إحساسى، وتعرفى على سر الكون، فقلت ببراءة:"إنه قمر الحصاد"

شاهدت "منير "مستمتعًا مع نقاط الضوء التى تحسها روحى، غمرت السعادة أعماقى، صدح صوت السكون من حولى:"تقدم وانشر خيرك ولا تهبْ أحدًا ".

أحس بأعماقى العائدة تدفعنى للطيران متدفئًا بروح منير ، ننسجم بألفة ونطير فوق بحيرة ساكنة، أسمع موسيقى العشق، أشعر بروحى تخرج من جسدى محلقة فوق الدنيا، أخيراً وصلت لشاطئ الربة الغارقة فى نعيم الحب.

"مخاوى"

انفرط العقد وتحلل أهل السوق من أحمالهم، ناموا فى سبات عميق، جال بخاطرهم نور الام التي استدعت أرواحهم فلبوا نداءها خاشعين، تشمموا رحيق جنة الأحلام، فسبحت أرواحهم فى ساحتها ، وتركوا أسواقهم وأزواجهم وأولادهم وانتشوا بالنبض العائد لقلوبهم.

اليوم لا أحدَ يحمل ضغينة لأحد، فقط نور الجليلة التى تقود الملائكة والحوريات والبشر وكل كائناتها، للاحتفال بعودة الدفء لأعماقهم، ستحرق الام الشر والعجز والمهانة والحزن، وتزرع عوضا عنهم الحب والأمل.

نفخت أم الروح فى الخاشعين بمحرابها وبراح كونها المهيب، كأن الدنيا كوب صغير تلقنه السر، وسحبت من أعماق "منسى "روح العجز، وألقتها وسط المياه الحارقة المتدفقة بالنيران، ومصت من روحى ذاكرة الأمل، وأمرت الجميع بالتحول لفراشات بيضاء والحس ببصيرتهم، فامتلأت أعماقهم بالخير ، فسحبته داخل الكوب الذى تشبه فتحته دائرة القمر المكتمل.

نسى الجميع كينونته واندمج فى عزف لحن الخلود، امتلأت السماوات بملايين الطيور، ففتحت أبواب السماوات العشر، فظهرت الجنة كقطعة من جبال الجليد المخلوطة في النور، رفرفوا بأجنحتهم وسط ضيائها، فامتصت روح السلام من قلوبهم، وفرغتها بالكوب المسحور.

أطلقت بعيونهم سر الخلود، فتحولوا لأشجار وزهور، وشكلوا لوحة جديدة، جمعت كل أجناس الكون ومفرداته، خلبت ألوانها المتجانسة الجمع الذي تمنى أن يظل مغموراً بالسلام للأبد داخل خميرة العطاء.

هطل الحب من قلوبهم، فسحبته الربة لداخل الكوب، وأخذت من نعيمها راحة البال، ونفخت بروحها فى أرجاء الكون، ليغمر الدنيا نور قمر الحصاد، فامتلأت أرواح كل الكائنات بالحب والسلام.

أمرت الجميع بالعودة لأعماقهم، والبحث بدأب عن نقاط الضوء التى تنير طريقهم، ارتعشت وجدانهم لتسرب نور البراءة لقلوبهم، حينذاك نسوا أحلامهم، وتحولوا لطائر أبيض بأجنحة رقيقة، حولت رشاقته الكون لشجرة خضراء تسجد بمحراب الأم وتطلب الشفاعة، ملأت الربة روح الشجرة بنورها، فاحتضنوا بعضهم بألفة وود، واستنشقوا رائحتها المسحورة.

الشىء الغريب أن الخالق الوكيل حاول تذكير أهل الحى بشق الهدوم وباللحظات العصيبة، لكنهم لم يتذكروا شيئًا، لان الجميع تسامح وتآلف كالملائكة كأنهم روح زهرة أو جذع صفافة.

وصت الأم الجميع قائلة: "نعم حررنا أرواح البشر من الخوف، وقوينا عزيمتهم لمجابهة الشر، لكن لا يمكننا أن نحيا ونعطى إلا إذا اكتملنا وملأت أرواحنا الرقة ".

"أن ترد الجميل، وتنزع الرعب من أعماق خلانك وأعدائك، وتحرر عقولهم، شيء خلاق لا يمكن أن يضاهيه أى عمل، يدعوك هذا للفخر ، ويجعلك مستحقاً للحياة، مستمتعًا بانصهار أحاسيسك وسط الجموع فى بوتقة واحدة.

"الحب يخلق الأحلام، وبإرادتك الحرة الواعية تعطيه للآخرين كزاهد مطيع ، فيتجاوزوا آلامهم وخوفهم، ويعيشوا بسلام كجذور أشجار الرقة المغروسة فى أعماقكم، وقتها سيهرب اليأس من أرواحكم للأبد وتنالوا رضاى ".

امتلأت روح صاحبى بالنور آخر النفق، تجاوز الصراط المستقيم ودخل مملكة الربة، طار كالفراشة فوق السماء العاشرة، ودار حول الكون، وشاهد معجزتها، وتدفأ بروحها.

يمكنه الآن الطيران بثقة، لن يخيفه التحليق بالهواء أو التحول لفراشة، ممتنًا للحب الذى قدمه الجميع لروحه، يمكنه أن يضحك ويبكى ويبتهج، دون أن يستغنى عن مشاعره وأحاسيسه.

تحققت أحلامه وعاش بالجنة ولامست أقدامه السماء، نظر من البيوت الخشبية المقامة على أرض الحديقة الواسعة على شوارع الحى فتأكد من سمو روحه وأصبح "منسى" عالمًا بخبايا الطريق، سلمته الام قاموسًا جديدًا ليسجل أسرار وهمس جيرانه، فابتهج الجميع بميلاد ذاكرة جديدة للأمل.

اخترقتُ روحه بحجرة والده، تشممت روائح وموسيقى الأزمنة التى خلدت العشق بليالى قمر الحصاد، وكشفت الحجاب عن الخبايا، بعودتى يمكنه تحرير الأرواح من الخوف، والكشف عن الكنز المدفون.

أعادت ربة النور الجميع للحى، فوجئوا بأجسادهم الممدة على أسرتهم متلحفة بالأغطية الثقيلة لتحمى ضلوعهم من برد الليلة، هطل المطر على الحى، طهر شوارعه ونظف أسقف مبانيه، تحسس الجميع بأيديهم وجوههم وقلوبهم، موقنين بحدوث المعجزة التى أعادت للحى عالم الغيب ومرشدهم للنور، احتضنوا بعضهم بفرح، فتحوا أعينهم لأول مرة على السنترال والمقهى والمطعم والسوق،مندهشين من أرواحهم المغمورة في الحب.

غردت أسراب العصافير فوق رؤوسهم، فاندفعوا لطريق الخير، غير عابئين بالتداول والبيع والشراء، شمروا سواعدهم وزرعوا جوانب الحوارى والشوارع وأمام المحلات بأشجار التوت والصفصاف، زرعوا فى همة أسطح منازلهم بالورد، نظفوا الخرابات وغرسوا الأشجار، موقنين بظهور مائة حديقة جديدة.

تفاجأ "منسى"بوجوده فى شقته، تحسس وجهه بأطرافه الناعمة، امتلأت أعماقه بالخير، تلمس قلبه قائلاً لنفسه: "ما أجملها حمل الرسالة!! يمكننى الآن مداواة جروح الحب ".

خرج من شقته، متوجهاً إلى سنتراله، منتشيًا بالقبول ، نظر لشارع السوق والبشر العائدين من الرحلة، تحسس قلبه وأعماقه، فانتشى مثلهم بنسمات السعادة.

نظر الجميع لهالته بدهشة وشكر لقبوله حمل الأمانة، امتلأت عيونهم بالرضا على صبره طوال رحلته القاسية، وتمكنه فى النهاية من رؤية وجه ربة الارباب ، ردوا عليه السلام وهم يغرسون الأشجار أمام محالهم ومنازلهم، قائلين "أهلاً وسهلاً يا عم "منسى".

تحسس أوراق قاموسه الجديد بين يديه وهو يتشوق لكتابة أول تعويذة عن ذوبان المرارة والألم فى النهر ، عندما سمع صوت باب سنتراله يصدح، غرغرت عينه بالبكاء، لعودته سالماً ، جلس على مقعده العالى منتظرًا زبائنه، خرجتُ أطبطب على ظهره وأمسح دموعه، وأُقَبِّل وجنتيه وروحه .

ترجل حتى باب السنترال ليشاهد عيون البشر ، ونادى على سكران طالباً قهوته، فخرجتُ من أعماقه مقهقهاً وقلت بسخرية: "خليهم اثنين يا بخيل!"

ضحك عن آخره وهو يضع قاموسه الجديد بدرج مكتبه، قائلاً: "يكفيك لحس البن المتبقى بقاع الفنجان يا "منير.

"معقول"

وقفت على الباب مندهشًا من الطاقة المتجددة التى أنارت جوانب السوق، انشغل الجميع برص البضاعه وسط عطر الصباح، وفشل عقلى فى التمييز بين عيونهم وأفواههم المبتسمة، تحولوا لروح وكتلة واحدة ، ارتدوا ملابس نظيفة وظهر نور عيونهم مشعًا كأنهم بشر آخرون، عدت مرة أخرى للبحث عن قاموسى الجديد لأسجل تغير ملامحهم السرية.

دخلت حبيبتى "زوبة" السنترال بوجهها الملائكى، فقمت مذهولاً عاجزًا عن النطق، انطلقت بعيونها المفتوحة بأعماقى، قائلة بصوتها العذب:" شايفك يا "منسى"، ازيك يا طيب".

تحسست وجهها بيدى المرتعشة، فاستكملت وهى تلامس خدودى وشعرى:"أنت المنى والمراد يا حبيبى ".

لا أدرى وقت السكون الذى مر على روحى لتستوعب حضورها، لحظات طويلة وأيام وسنين مرت بذاكرتى بلمح البصر قبل الترحيب بعودتها وتشمم عبق جنتها، انهمرت الدموع من عينى وهى تمسح خدى وتقول فى سعادة: "أنت نور عينى وحياتي".

الدنيا تدور مرة أخرى على تروسها المعكوسة، اللحظات تمر كسنين، والسنين تنقضى كدقائق، أخذت روح قلبى من يديها وذهبت لشقتى غير عابىء بالوجوه السعيدة التى تحيط بأجسادنا، غرد الجميع بأغانى النور حولنا كأننا بشوارع الجنة، دخل وراءنا نساء وفتيات لا أعرفهن، أخذننى للحمام ، دعكن جسدى وبلاط الشقة وحوائطها بالخل والليمون، فتحن البلكونات والشبابيك المغلقة ورششنها بمسحوق الرقة، وجهتهن أميرتى "زوبة"كملاك وأثنت على عملهن كأنها بمنزلها التى حلمت بالنوم فى حجراته باقى العمر.

أحلام الحى تتحقق دفعة واحدة، لا ندرى كيف حدث ذلك، لكن الناس التى تعودت الشر وبادلتها الدنيا القبح والمهانة، لا يمكنهم أن يصدقوا حدوث المعجزات فى دنياهم أو آخرتهم.

بين ليلة وضحاها، انفجر نور الحى وانشغل الأهل بملء أعماقهم بالربيع، سار الجميع فى طوابير يبحثون عن القمامة ليحرقوها، قرروا فى لحظة فارقة لا نعرفها تطهير أرواحهم وإظهار جواهرهم المدفونة .

أحاطونى كرفاق الطريق والدموع تجرى على خدودهم كنهر متسائلين: "إزاى ده حصل؟!" رددت على اندهاشهم ببراءة: "لا تتذكروا الشر، فقط تواصلوا مع نور الخير، وانشروا رائحة أعماقكم الطيبة".

أيامًا أو شهورًا لا أدرى عددها، كان الجميع يبكى على العمر الضائع فى الظلام، كنت أخرج عليهم كل لحظة لأذكرهم بطريق الأمل الذى لا يجب أن يغيب عن أعينهم لحظة، باركوا

نوم "زوبة"بشقتى دون أن يندهشوا، كأنهم يردون ديونهم لصاحب المكتبة ، وللطاهرة البريئة التى خففت جراحهم.

أمشى بشوارع الحى المزروع على جوانبه أشجار التوت والصفصاف، مستكملاً بحثى عن نقطة تراب أو كيس قمامة فلا أجد، اجلس بسنترالى أدون اندهاشاتى ، اسمع صراخ أهل السوق بالشارع منددين بالبلدية والجامع والكنيسة، تتقدمهم "زوبة"بخطواتها الواثقة.

صرخ الحاج "سعيد"من فوق ربوة عالية:"هرب الموظفون عن بكرة أبيهم "، رد عليه "مفجوع"و "زخارى "بصوت واحد:"سنحول وكرهم لملجأ للحزانى "، بكت مسعدة خلفهم قائلة:"سنضع بحجرات المبنى الجديد "سكران"، و"فجر" لنخفف آلامهم.

شمر الصبية المعربدون بالأسواق سواعدهم الفتية وزرعوا الأرض المحيطة بالمبنى بزهور الفل وأشجار الصفصاف والتوت، رفعت "زوبة" يافطة كبيرة مكتوبًا عليها "خير"وعلقتها على باب المبنى، انطلقت الأفراح لعودة الصبايا الهاربات مع أم النسيان بوجوههن الملائكية، مقررين هدم المقهى وبيت السر وبناء مصنع لإنتاج العطور، تشابكت أياديهن وعيونهن مع الشباب الذين قرروا تحويل الحى إلى جنة.

أخلوا أماكن الحجرات الخشبية العتيقة ببكاء أدْمى قلوب الجميع، تذكروا صراخ وتعديد الرجال قساة القلوب الذين دهسوا بكارتهن، صرخت فيهم ليخرجوا من النفق ، امتلأت وجوههن بالأمل مستكملين بناء جنة إنتاج عطور المحبة، زينَّ الحجرات الخشبية وفرشن أرضها بالزهور، زرعن الأشجار المنيرة بكل مكان، أخلين قمامة المقهى وحولن أرضها لحديقة واسعة تحيط بمبنى الفراشات، عادت أرواحهن البكر ، وحول رحيقهن الناس لملائكة وأبرار.

صرخت "تحية"من بعيد قائلة:"حولوا الجامع لمدرسة، ذهل الناس للحظة من قوة أعماق الخضرية وصفائها، دعمت روحها "زوبة" " فانطلق لسانها ببراءة قائلاً:"تعليم الأطفال أهم عند الربة من ميضة "مطيور" وسجاد "مرعى"، حضنت الخضرية بناتها الصغيرات، وقررت بفخر استكمال تعليمهن فى المدرسة التى قررت "أميرة" بنت"أحمد عز" القيام بتعليمهن دروس الحب.

صرخ "زخارى"وسط اندهاش الجميع: "حولوا الكنيسة لمستشفى ومسرح، خلع القسيس رداءه الأسود، وشمَّر عن ساعديه مع الشباب وأهل الحى ليزيل الستائر والغبار من على الشبابيك المظلمة، قرروا ملء الحجرات بالورد، ملؤوها بأسرَّة مرسومًا على جوانبها طيور الجنة، تركوا الساحة الكبرى كمسرح ليحكى كل ليلة فصلاً جديدًا عن أمانينا فى مستقبل الحى "

العيون الباكية خلفنا تزغرد لعودة "مهجورة"مع أطفالها، صرخت من بعيد: "ضعوا "حمدى" و"مرعى" ببيت الخير الذى يعالج شروخ أعماقهم، ونادت الخضرية على جمعنا حتى لا ننسى، قائلة: "لا تنسوا أن تضعوا معهم "مهياص" و"هوسة" لتخفيف أوجاعهم".

سار "حسن" ابن "صبرة" وسط الجميع، سعيدًا بعودة حى الألفة بأركان قلبه، تمنى باكيًا عودة زوجته الطفشانة مرة أخرى إلى أحضانه، ونادت "صبرة الداية" بوجهها الصبوح على جمعنا لنشفق على وليدها ونبادله المودة لينمو عقله المدهوس بالغربة من جديد بين أهله.

أحاطت "أميرة" بنت "أحمد عز" بقلب "حسن" العائد كحورية، طبطبت على صدره فانفجر قلبه كالبركان داخل أعماقه ليعود بلحظة فارقة مستعيدًا حنان الأم التى قدمت كل الحب والتفانى ، اقتربت "صبرة" من وجهه والدموع تسيل من عيونه لتملأ قلوبنا بالحنان، أخذها بحضنه وقال بصوت عالٍ: "سامحينى يا أمه"، سحبت "صبرة" يد "أميرة" قائلة: "الملك يستحق الأميرة"، غرق الناس فى نور السلام، فباركوا الخطوبة واعتبروا أنفسهم جميعًا أهل "أميرة" التى مات أبوها فى الحى فى الماضى المدهوس.

شبكت "مرزوقة" أطراف أصابعها بيد طفلة صغيرة كالقمر، قائلة:"نعم اشتريتُ "أمل" من بيت "فجر"، لكنى أطعمتها ونمت بحضنها سنينًا طويلة، هى بنتى وبنت "مفجوع" لا تحرمونا منها، انطلق لسان الصغيرة بكلماته الرقيقة قائلاً: "مرزوقة" علمتنى وربتنى ، ودفَّأنى "مفجوع"كل ليلة بالحب والأحلام، سأزرع معهم أسطح المنازل بالورد والفل".

وضع مسؤول بيت الخير أبناء الحاج "سعيد" بالحجرات ليزيل الشر من قلوبهم ، احتضنتنى "زوبة" قائلة: انظر يا "منسى" للسماء، ماذا ترى؟" قلت:"إنه قمر الحصاد"، الأحاسيس الصافية تملأ أعماقى، أشعر بأصوات أهل الحى وأسمع بهجة أرواحهم وهم يندفعون خلف بعضهم ليستكملوا البناء والزرع بحب لا نظير له إلا بجنة الربة.

اقترب منى "نصحى" بن زخارى، قائلاً: "معقول"، أخذته بحضنى، دفَّأتُ قلبه، وأعدت كلمات أبى فى وجهه المنير: "الحب يصنع المعجزات".

ابتعد عنا وهو يضع يديه على كتف الصغيرة "شهد" كأنها علامة على انسجام حى النور ، أحسست بعقلى كزهرة ، فقدت ذاكرتى تشوهات الماضى والعقل المقسوم وموازين الحساب وأشجار المعصية.

رفعت الصبايا جسد "أم النسيان" الميتة، وحطوا قرب النهر بروحها، بنى أهل السوق فى الأرض الفضاء ضريحًا شامخًا حول جثتها ، ليخلدوا ذاكرة امرأة قدمت الحب للجميع وقادت فى يوم ما الصبايا العميان إلى النور.

جمعت "تحية"نساء الحى وراءها قائلة:"مكان ما تحط "المبروكة"ازرعن أشجارًا"، سمعنا صوت "الداية" يصرخ من خلفهن: "اجعلن مكانها مرسىً لعلاج الجفاء والفقد".

وهبت الحاجة زوجة "أحمد عز" نفسها لخدمة "الضريح وتنظيف حديقته حتى موتها، امتلأ وجهها بالتسامح وهى ترتدى أزياء الرجال وتمسك المنجل والفأس، لتزرع الحديقة بزهور المودة.

فوجئ الجميع "بمخروقة" تمسك برقبة الشيخ "سعودى" وتسحبه فى جنزير مع موظفى البلدية، طالبة من الجميع حرق جثثهم، نظر الجميع ناحية قلبى وعيونى، بادلتنى "زوبة" نظرات الود، فقلت كخادم أمين: "يكفينا وضعهم ببيت الخير"، صرخ "زخارى": "بشرط عملهم فى زراعة الأرض بالخضر والفاكهة والقمح".

ليلة نزول الوحى على الحى واكتشاف الجميع كنوز أعماقهم، فر موظفو البلدية تاركين جحر الشر لينخر السوس بجدرانه، دعمهم الشيخ "سعودى" ليهربوا فى الخرابات المظلمة، بعد أيام أو شهور لا أحد يتذكر انطلق النور فى كل شبر ، فلم يجد موظفو البلدية أو الأشرار مكانًا للاختفاء ، قبضت عليهم "مخروقة" بمفردها وربطتهم بسلسلة صدئة وسحبتهم حتى جمعنا بوسط الميدان ، وطلبت حرق أرواحهم الشريرة.

لكن عيون "زوبة"الطيبة ألهمتنى قبل اندلاع الحريق، سحبتهم "مخروقة" كالكلاب داخل حجرات بيت الخير، ليعملوا مثل الأهالى فى الزراعة التى يمكنها تطهير أرواحهم من الأذى.

خلال شهور أو سنين تحول الحى لخلية نحل، كل شخص عرف دوره، يصحو من النوم مبتهجًا حاملاً معوله لاستكمال الزرع، آخر اليوم يجتمع الأهل حول ضريح "أم النسيان" يتبادلون الحب وحكايات الأرباب الطيبة، ينامون على الحشائش والحديقة التى نمت حول الضريح، مستمتعين بالعمر الباقى، مغمورين فى الخير والسلام.

بليلة لا أنساها، والقمر يلف الحى باكتمال بهائه، جلست حبيبتى "زوبة" بأرض الحديقة، وطلبت منى معاقرتها ، بنفس اللحظة أحاطنى أهل الحى حاملين أكوام الكتب التى خبؤوها بالصنادل فى شقق منازلهم بأيام الخراب، وطالبونى بإعادة مكتبة مرشدهم ، قال "مفجوع" و"زخارى"بصوت واحد: "لا يمكن أن تكتمل أرواحنا إلا بإحياء ذكرى الرجل الطيب الذى أخرجنا من ممر الظلام."

على ضفاف النهر شارك الجميع فى الحفل، حملونى مع "زوبة" لتباركنا روح "أم النسيان"، شاركت "الحاجة" خادمة الضريح الجميع فى بناء منزلى ذي الشبابيك الخشبية المفتوحة وسط الحديقة، وتركونى مع أميرتى ورحلوا إلى منازلهم ومقاهيهم، نظرت على الحى المنير من الشباك المفتوح فأيقنت انني بداخل الجنة."

انتهت

الوراق ٢٠١٢



الكائن الضئيل

كرم صابر

بلحظة فارقة نسى عقلى الخضرية والداية والطعمجى والقهوجى، ودخل بروحى طيف غريب، فتناثر الماضى فى ذاكرتى، كأن عقلى يستقبل إشارات بعد أن يخلطها ويشفرها ويقذفها لقاع أعماقى، يسترجعها من جديد، كأنها مولود جديد يمكنه ترتيب العالم، شاهدت من بعيد حدائق السماء ببيوتها الخشبية تقترب من روحى، تمنيت الوقوف بشبابيكها البعيدة والنظر من هناك على شوارع الحى ومنازله.

الكائن الضئيل

الغلاف: عبد العزيز السماحى

كرم صابر